حكايات المهجر

تأليف

عبد المسيح حداد

صاحب جريدة السائح

في نيويورك

سنة 1921

مقدمة

منذ دخلت اميركا منخرطا بين عالمها السوري ونفسي ترى اشكالا واوضاعا في حالتنا الاجتماعية وصورا شتى لحياتنا السورية الاميركية وكنت كثيرا ما اسائل نفسي متى يا ترى يتحـرك قلم احد كتابنا فيدون هذه المشاهد لحمل الناس على درس اسرارها

اما المشاهد التي اعنيها فهي مرئيات لاسرار ومظاهر لما خفي في النفوس وقد كنت اراها واقراها واسمعها واحس بها فاجدسمة ميدان لمن شاء من الكتاب تصوير الحياة السورية باسلوب القصص الصغيرة. ولقد ظل هذا الفكر يراودني حتى كتبت اول قصة «عبد الفطرة» لخاطرة خطرت ببالي املاء بها بعض فسحة من صفحات السائح ولم ادر الا وانا مدفوع من نفسي في ذلك الميدان الذي رغبت لغيري من الكتاب في ولوجه فما ظهرت تلك القصة حتى رايتني محاطا باصدقاء يسائلونني كيف خطر ببالي تصنيف قصة هي صورة طبق الاصل لمشهد من مشاهد حياتنا في ديار المهجر ثم شعرت بيد لطيفة ممسكة بيدي ــ تلك كانت يد عميد الرابطة القلمية جبران خليل جبران وسمعته يقول لي. «اريد ان اقرا لك قصة من هذا النوع في كل عدد من اعداد جريدتك ولا عذر لك عن القيام بذلك العمل فامامك ميدان واسع ولجته فتعمق في حناياه وغص الى قاعه وجئنا بما تغوص عليه »

ثم جاءني بعد حين يحاول اقناعي بان اجمع هذه القصص بكتاب على حدة فلم ار بدا من ذلك لان ما سمعته من هذا الصديق الحبيب وغيره من الاصدقاء الغير على اداب اللغة التائقين الى نزع ما تقادم عهده من البستها وجلبيتها بالبسة تناسب هذا العصر قد فتح في نفسي اذانا وعيونا فساقني الميل الطبيعي الى القيام بما تمنيت ان يقوم به غيري ولهذا اطلقت للمخيلة العنان في درس حياتنا السورية في المهجر تترصد مشهدا من مشاهدها فاصوره بقالب حكاية صغيرة حتى جمعت هذا الكتاب ولعله مقدمة لغيره ان شاء الله

اقول مقدمة لغيره لاني رايتني قد ولعت بهذا الدرس وادركت اني سائر مع الجدول الصغير ناشدا مياه الخضم فان كنت بهذه الاقاصيص لم ابلغ الغاية ولم ارسم ما يجب رسمه من مشاهد النفس السورية العميقة فلسوف يقذف بي الجدول الذي انا فيه الى العمق حيث استطيع التعمق في درس الحياة السورية من وجوه عديدة منذ ابتدات المهاجرة الى ما صرنا اليه

نحن بحاجة الى مراة نرى فيها انفسنا ونشاهد بعيوننا مظهرنا فنصلح فيه مواطن الخطل. واذا كان المرء يلجا الى المراة لاصلاح شعره وفرقه وربط عقدة رقبته فبالمراة النفسية يصلح ما يلزم من مظاهره النفسية ولعمري ان هذه المراة المعنوية ليست الا الرواية المصورة لعادة من عاداتنا وتقليد من تقاليدنا فيها ترى عيننا النفسية حسنات حياتنا الاجتماعية وسيئاتها.

ولهذا فجريا وراء هذه المنشودة — مراة النفس — اقدمت على كتابة هذه الاقاصيص ودعوتها «حكايات المهجر» لانها تختص بالمهجر. عساني افيد بها والا فحسبي النية وعليهم السلام

نيويورك في ١ نيسان سنة ١٩٢١ عبد المسيح حداد

الحاكم بأمره

الحاكم بامره

قيل لي ان عائلات سورية موءلفة من اباء وبنات وصبيان تقطن في شارع واشنطن واغلبها في اعالي البنايات التي يشغل طباقها السفلى محال تجارية ومصانع الية وادارات مختلفة فلم اعجب من سكناها شارع تجاري لعلمي ان الاقتصاد الضروري يحدو بالعائلات الى مثل هذا ولكني تمنيت لو اني ادخل الى عمق حياة هذه العائلات فاقرا في صفحاتها درسا تاريخيا وحقيقة اجتماعية

ذات يوم قرب المساء اذ كنت سائرا في الشارع المذكور اذا بصديقي نجيب ملاقيا لي وجها لوجه فلما التقينا اخذ يدي جذبا وقال «تعال معي يا صاح لنزور عائلة عمي في منزله فانه يقطن في الطابق الرابع من هذه البناية

(قال هذا وقد اشار الى بناية امامنا في شارع واشنطن) فاجبته «اههنا يسكن عمك؟ والله ما خطر ببالي ان عائلة تسكن في هذه البناية القديمة المكتظة بالمحال التجارية!»

فقال «نعم هنا يسكن عمي دعيبس، فتعال معي لاقضي هذه الزيارة واتخلص منها في حين يكون عمي وحده في البيت ثم انه اذا كنت معي لا يستطيع عمي ان يجبرني على البقاء طويلا كما يفعل كلما ذهبت لزيارتهم

فاجبته« اذا كانت المسالة لغاية لك فلا باس ان اكون «حصانا لغايتك»·

(قلت هذا مجاملة له واما نفسي فقد حدثتني ان اذهب لا لغايته بل لغايتي اي لارى بعيني كيف تعيش عائلة عمه في هذا المحيط ومن وما هو عمه)

صعدنا السلالم وكانت درجاتها الخشبية تنحني تحت وطاات اقدامنا وتئن انات عميقة وتهتز البناية فتسمعنا مفاصلها نغمة نجارية ولما وصلنا الى العم دعيبس دق نجيب الباب فسمعنا الجواب يامرنا بالدخول فدخلنا وسلمنا وتعارفنا وجلسنا·

حضرة العم دعيبس يقارب طوله العرض او عرضه الطول وقد كان جالسا على الكرسي فلم يبن شيء من ذلك الكرسي المسكين· هياته بشرية سورية بكل معاني الكلمة الا ان شاربيه نسيج الطبيعة المتعصبة التي لا تسمح لشيء عصري ان يعبث بصنعها·

وكان ابن الاخ يكلم عمه والعم يدخن بالنارجيلة ويخرج الكلام مقمطا بالدخان وهو عاض بصفي اسنانه على خشبة النربيج اما انا فقد كنت غارقا ببحر افكاري اسائل نفسي اين يا ترى شاهدت هذا الرجل ــ عم صديقي نجيب ــ وقد ظللت وقتا اسوق ذاكرتي واجلدها لعلها تفطن للمحل الذي

رايت فيه مضيفنا العم ولكن الذاكرة الملعونة خانتني

وفيما نحن كذلك اذا بامراة العم قد اقبلت وهي امراة كهلة مربوعة القامة حادة النظر سمراء اللون قوية العضل. دخلت اولا عابسة ولكنها ما رمت الى الارض بجزدانها الثقيل حتى قلبت تلك العبوسة بابتسامة سورية جميلة فرحبت اولا بابن سلفها ثم بالغت بالتاهيل بي مكثرة من عبارات المجاملة المعتاد عليها. وما انهت تسليمها علينا حتى رايت بوادر جسم العم دعيبس قد تحركت قليلا نحوي وقال: «يا حضرة المستر ... هذه امراتي وام الاولاد وهي من بطلات اميركا فلا يخفى عنك ان اميركا لا تليق الا للنساء واما الرجال مثلنا فهم اصفار للشمال»

(قال هذا ضاحكا كانه يقول فكاهة ولم يدر اني فهمت انه قال الصحيح)

فاجبته مجاملا: «ان كلامك يا حضرة العم في محله فانك اعرف مني على نحو ما يقال — اكبر منك بيوم اعرف منك بسنة .»

ولم يكن حضرة العم ليتعب من التدخين فقد ظل طول تلك المدة عاضا باسنانه على خشبة النربيج يقول عبارة ويردفها بسحبة طويلة من النارجيلة فيخرج الدخان قسمين واحد من «باب المندب» والاخر من «جبل فيزوف»

ثم صاح العم بامراة العم: «يا كليمة اهتمي بالعشاء للشباب» واذ سمعت هذا الامر نهضت مذعورا وبدات اعتذر للعم ولامراة العم ان لا يتعبا سرهما فاني مشغول ولولا ان نجيبا قال لي ان الزيارة لا تاخذ اكثر من ربع ساعة لما استطعت ان اجيء معه. ثم ان نجيبا بدوره ايضا بدا يعتذر عن نفسه متكلا على ضرورة ذهابه معي بدعوى اني مشغول وانه مضطر ان لا يفارقني.

عندئذ صاح بنا العم صيحة قوية وقال: «شغل ما شغل انا لا افهم هذا. قلت انكم تتعشون عندنا وانتهت المسالة. الان كليمة تحضر لنا العشاء وبعد قليل تحضر البنت فترتب لنا سفرة المشروب وبعد ذلك نقضي السهرة وتذهبون ولو اننا في البلاد (سوريا) لكننا جعلناكم تنامون عندنا ولكن هذه البلاد ضيقة».

قلت آنفا اني بهذه الزيارة لم اكن حصانا لغاية صديقي كما اعربت له وكما ظن هو بل كنت بالحقيقة حصانـا لاختباري ولهذا التفت الى صديقي وقلت له انه اذا كـان يرغب في البقاء فانا اوجل شغلي من اجله فاضطر المسكين ان يقبل بالبقاء حسب امر عمه ولا اعلم كم شتيمة صاغها لي قلبه.

عدنا الى الكراسي فجلسنا ولم تمض خمس دقـائق

حتى وفدت ظبية البيت ففتحت الباب وبعدما مدت راسها وشاهدتنا سحبته ورجعت مسكرة الباب بعجلة كانها خجلت من الموجودين او بالحري مني انا لاني كنت الغريب بين الجماعة. ويظهر انها دخلت الى المطبخ من البـــاب الثاني لان اباها صاح بها ان تاتي اليه من جهة المطبخ الذي له مدخل الى البهو وقد قال لها مشجعا ان لا تخجل فانه ليس عندهم غريب. وما مضت لحظةحتى جاءت الام من المطبخ ساحبة بيدها ابنتها التي اصطبغ خداها بالاحمرار ولما صارت امامنا قالت الام «هذه بنتنا مريم خجولة تستحيي من خيالها تعالي يابنتي ولا تستحيِ فهذا ابن عمك مثل اخيك وهذا صاحبه مثل اخيه».

وكان كلمات الام قد اطارت خمرة الخجل من راس مريم ولهذا لما رات نفسها امام جمهورنا تشجعت وصارت كبنات اميركا فمدت ساعدها وصافحت كلا منا محيية ولما وصلت الى ابيها قبلت يده اما هو فلم يقبلها ولكنـــه استرضى عليها واكثر دعاءه لها.

(كل هذا كان منه وخشبة التربيج لم تبرح معضوضة بين اسنانه كانها خلقت كذلك وكانه هو ولد وبفيه نربيج)

وقد لحظت ان مريم قد سحبت قبيل ان تقفل راجعة من قرب ابيها ضمة من الريالات وبعياقة كلية ادخلتها الى جيبه

ثم تركته مسددة خطواتها نحو المطبخ لتساعد امها٠

عندئذ سمعت العم دعيبس يقول لنا بابتسام: «هذه مريم الغالية وهي بنت ولا كالبنات٠ الله يرضى عليها٠ مطيعة مجتهدة تسوى عشرين صبيا»

ولم يتم كلام العم عن ابنته حتى انفتح الباب بخشونة ودخل غلام بعجلة فالقى عنه في منتصف الغرفة علبة معلقة بكتفه بنشاط وتركها على الارض غير مكترث بها وتقدم في الحال نحو ابيه صائحا بملء صوته: «يا بابا اشتريت الربطات من محل الياس مرقص لان كامل سليمان طلب مني ريالا زيادة٠ وقد بعت اليوم بستة عشر ريالا صرفت منها نصف ريال اجرة طريق وثمن اكل»

هنا ترك دعيبس النربيج من فيه لاول مرة منذ تشرفت بزيارته فجذب ابنه الى صدره وقبله قبلات سمعنا لها رنات موسيقية ثم تناول من ابنه الدراهم فعدها ووضعها في جيبه واخرج من الجيب الثاني ربع ريال فاعطاه اياه حلوانا له واتبعه بربع ريال ثان واسر باذنه ان ينـــزل الى السوق ويشتري سيكارات في الحال٠

(ان العم ظن انه اسر كلامه لابنه ولكن صوته كان مسموعا لا بعد من عشرين ذراعا منه)

وما تناول الغلام المال حتى طفق يعدو من اول خطوة

خطاها جارفا درفة الباب بطريقه وقد اهتزت جوانب المنزل لركضه. وعند ذلك ابتسم العم على خشبة النربيج وقال لنا: «هذا ولد زهرة من الزهرات وسيكون نعم الخلف. ذكي شاطر ولا ما يعيبه سوى انه طائش لكنها طياشة كيسة الا انها في ذمة امه فانها تدلله وتدلعه ولا يخفى عنكم ان للسوريين عادة ذميمة وهي تدليل الابناء والقسوة على البنات في حين انهن باميركا احسن منهم وكل بنت في الحقيقة تسوى عشرين صبيا».

قضينا السهرة كلها من السكرة حتى نهضنا للخروج والعم دعيبس لم يدفا لسانه في حجرة فمه فطورا كان يامر الام بالمازة وتارة يطلب الصحون من البنت واخرى يقول للغلام ان يرمي رماد السيكارات خارجا ولما جلسنا للعشاء الذي حضر الى امامنا لم تجلس معنا الام ولا البنت حتى ولا الغلام ايضا بالرغم من اني ورفيقي اكثرنا الالحاح على العم بان يسمح لاهل البيت بتناول الطعام معنا ولكنه كان يعتذر عن قبوله بذلك مدعيا ان الوقت لا يسمح فعلى من ذكرنا واجبات في المطبخ بينا نكون نحن تناولنا الطعام وفي حال عشائنا كانت اوامر العم تباعا لزوجته وابنته وابنه.

«هاتوا انبطاطا خذو صحون الشوربا. املاءي يا بنت الكاسات ماء. صبي ياامراة في صحن المستر. يا ولد قدم

الفجل لناحية ابن عمك. »الى ما هنالك من الاوامر.
ولما حان وقت انصرافنا نهضنا انا ونجيبا فودعنا العم وطلبنا ان نودع المدام وابنتها فنادى بهما حضرة العم فجاءتا من المطبخ مظهرتين ذهولهما من سرعة ذهابنا فاجبنا اللازم وصافحناهما مودعين وخرجنا بسلام
ولما وصلنا الى الشارع ضحك نجيب وقد كنت انتظر منه سخطا وغضبا لتساهلي بالبقاء عند بيت عمه ثم قال لي «ارايت كيف يعيش عمي؟»
فاجبته: « نعم رايت. ولكني لا ازال ابحث بفكري اين شاهدت عمك قبلا.»
فقال مقهقها «انت لم تره ولكنك رايت شبيها له في مرسيليا .»
فضحكت معه لهذه الفكاهة التي جاءت في محلها ولكني اصررت على اني رايته نفسه قبل اليوم الا اني نسيت اين ثم سالته: «وبماذا يشتغل عمك؟»
ــ يعطي قومندا (كان جوابه بتصنع ازدرائي على وجهه)
ــ نعم لاحظت ذلك. لاحظت كثرة اوامره لاهل البيت ولكن من اين يعيش؟
ــ من اين يعيش؟ اانت اعمى؟ الم تر ان امراته لا تعود الى البيت الا مساء فتاتيه بكنوز المال؟ وابنته الصبية تورم جيبه بالريالات حتى الصغيرة تاتيه بستة عشر ريالا كل يوم وربما اكثر

ــ اذن شغل عمك ان يبقى في البيت يسلي النارجيلة لئلا تشعر بوحشة؟

ــ بالتمام. زد على ذلك ان لعمي ذوقا حسنا بالتدريب العسكري فلولا اوامره لاختل نظام العائلة.

ــ مضبوط. اظن الان ان عمك في سعة من دهره؟

ــ في سعة من دهره؟ بل هو من اغنيـــاء السوريين الحقيقيين الذين غناهم ذهب «حجر».

ــ اذا كان عمك غنيا كما تقول فلماذا يشغل امراته وابنته وابنه الصغير؟

ــ لا تتوسع في الموضوع ولا تزد علي بسوءالاتك ولكي اكفيك موءونة ذلك اخبرك انه كان لعمي موقف خطير ذات يوم على اثر كتابة احدى الجرائد مقالة عن «بيع النساء وكسل ازواجهن» فانه لاول مرة في حياته تحرك دمه وصار ينزل الى السوق ويحمس الناس على ان يقصدوا ادارة تلك الجريدة ليقطعوا انامل الذي كتب المقالة ولقد كان يكيل الشتائم الغليظة للكاتب الذي تهجم على الاعراض.

عند هذا قلت لرفيقي ضاحكا راغبا في البحث معه من جهة اخرى بعد ما رايتـــه يريد قفل الموضوع: «يجب ان تكون عائلة عمك سعيدة وعلى غاية ما يرام فانه هو راض وعائلته راضية وليس ما يعكر صفوها فكر متبنه من امراة او ابنة لحرية او استقلال او لحقوق فردية او غير ذلك

فقال: «نعم كما ذكرت. ولكن حدث منذ سنوات شي كدر خاطر عمي كدرا لا مزيد عليه وهو ان امراتـــه مرضت

واخذت الى المستشفى حيث ظلت شهرين تحت المعالجة والعمليات الجراحية وقد انفق عليها مبلغا من المال. وليتك شاهدت عمي في ذلك الزمان انه كان جبلا من الهم».

فقلت لساعتي:«ولعل عمك الذي كانت امراتــه في مستشفى روزفلت عام ١٩١٧؟

فاجاب:«نعم في مستشفى روزفلت و كيف عرفت؟»

فضحكت ضحكة طويلة وصحت بنجيب:«الان وجدتها. الان عرفت اين شــاهدت عمك. نعم نعم الان عرفت.

اسمع يا نجيب. في ذلك الزمان شاهدت عمك صدفةعند الخوري و كان يطلب اليه ان يعطيه ورقة بامضائه وشهادته انه اي عمك من فقراء الحال ليكسب ثقة ارباب المستشفى فلا يتقاضونه مالا وقد كبس يد الخوري بشيء لقاء ذلك اما انا فلما شاهدته على ما كان عليــه من التلبك حزنت لحاله واقتربت منه سائلا عما اصابه فاجابني بان بيتــه قد خرب فانه لم يكفه الله اجور الاطباء والمستشفى فقد خسر شغل شهرين لامراته وانها لا بد ان تمكث شهرين اخرين بعدما تخرج من المستشفى فيكون التعطيل اربعة اشهر. اما انا فلما سمعت حكايته احببت ان اخفف عنه واعزيه بحديث معه فقلت له ان الخسارة المالية لا ينظر اليها طالما الامراة قد تعافت وان خسارة المال لا شيء امام خسارة الحياة. وقد زاد عمك حزني عليه في تلك الساعة لانه لم يرق له ما نطقت به بل تناوله كانه خال من كل معنى مفهوم. لم يعجبه رايي اسمعت؟»

فهز نجيب راسه وقال لي وقد انتهينا الى مفرق الطريق بينه وبيني: «نعم لم يعجبه رايك لان المال عنده يسوى اكثر من امراة. فانه لم تكد تخرج امراة عمي من المستشفى حتى استانفت الشغل ببيع الجزدان بالرغم من انذارات الاطباء ولكن شكرا لقوتها البدنية فانها غلبت الضعف وهزئت بالعوارض وها هي اليوم كالنمرة كما رايتها. ولو لم تكن انت معي في هذه الزيارة التي لم يكن لي بد منها لاسعني عمي قوارص الكلام لاني لا اسمح لامي ان تشتغل كامراته بالبيع ولاننا نعيش في بروكلن بين مساكن الناس».

وكنت اذ ذاك قد افترقت خطوتين عن صديقي نجيب فودعته ثم ابتسمت وقلت له وانا ابتعد عنه: «الحمدلله قد عرفت اين شاهدت عملك اخيرا ليس في مرسيليا المشهورة بضخامة احصنتها بل في نيويورك»

في بيت الميت

في بيت الميت

عندما مات طانيوس المر ظل بيت الفقيد مقصد المعزين اسبوعا كاملا ليل نهار وقد خيف ان يكون بلاء اهل الفقيد من كثرة المعزين اكثر من فقدهم الفقيد المرحوم ولكن هي العادة السورية في هذه الاحوال تاخذ ماخذها وهو التقليد يجري مجراه ولو تقطعت القلوب وتفتت الاكباد وتحطم اناء الصبر .

اهل الميت يسمعون تعازي من افواه المعزين كانها امثولات تعلمها قائلوها من جملة الصلوات التي تقال كل يوم واني انا كاتب هذه الحكاية اشعر بكل ما في من العواطف مع الفاقدين ليس على من يفقدون بل على جلادتهم في استماع فلسفة التعازي

الا انه من نعم المولى ان الاصطلاح في التعزية ان يكون وقتها قصيرا جدا فالمعزي يبقي قبعته بيده واذا كان في الشتاء يظل لابسا سترته العليا وما الداعي الى هذا الاختصار ميل من القوم الى التخفيف عن اهل الميت بل كثرة القادمين حتى يضيق عنهم المكان واذ ذاك يخرج فوج ليعطي مكانا للفوج القادم جديدا

اما اهل الميت فجلوس بلا حراك واذان بلا السنة

وعيون تنظر احضانها وشفاه تتمتم كلمتين لكل قادم وكل مودع وهما «وراسك سالم» جوابا على التحية في التعزية لدى الدخول والخروج وهي «عوضنا الله بسلامة روءوسكم»

والمرحوم طانيوس المر كنت اعرفه معرفة سطحيـة فلم ازره في بيته بحياته ولكن صديقي بطرس كرواني جذبني جذبا لناخذ خاطر اهل الفقيد قائلا لي ان التعزية واجبة على كل عارف ولا فرق نسيبا كان ام صديقا ام من المعارف .

وهكذا كان ذهبنا وكان حضرة صديقي ابرع مني في الكلام فقد دخلت الى بيت الميت وانا كالجنين في عالم التقاليد فقد هممت بالقاء التحية التي اقولها في كل الاوقات الا ان صديقي بطرس رفع كفه ووضعه على فمي فجعلني ابلع «نهاركم سعيد» ثم همس باذني ان اقول «الله يعوضنا بسلامتكم» فقلت وجلست كاني من اهل الميت على ما وصفت وازيدهم بعدم التمتمة لان المسالة لا تعنيني وبنظر الاشباح من كل جهة لان حضني كان مملـوءا بسترتي المطوية وفوقها قبعتي وقد احمر وجهي خجلا لاني كنت الوحيد النازع عنه سترته

بعد سكوت خمس دقائق فتح بطرس فاه بالكلام فقال «قبل ان مات اسكندر الكبير عرف ان اخرته اقتربت

وان امه ستحزن عليه حزنا عميقا فدعاها اليه قبل موته وقال لها وصيتي اليك يا اماه ان تادبي مادبة بعد موتي وتدعي اليها كل الناس وعندما يجلسون الى المائدة قولي لهم ان من لم يذق حزنا على حبيب له فليمد يده وياكل. وهكذا كان فبعد وفاته ادبت مادبة ودعت اليها جميع الناس ولما جلسوا الى المائدة قالت لهم ما اوصاها ابنها اسكندر ان تقوله فلم يمد احد يده للطعام. فعرفت اذ ذاك ان كاس الموت دائرة على الجميع ولهذا تعزت في مصابها الجلل»

سمعت هذه الموعظة فكبر قائلها بعيني وقلت في نفسي يا ضيعان ما تعلمته في المدارس والله ان بطرس فاقني باسلوبه المعزي وقال احسن موعظة تقال في محلها . وكاني نسيت نفسي اني موجود في هيكل الصمت فقلت لرفيقي احسنت والله بهذه التعزية انها لحكمة منزلة

اما الحاضرون ولم يكونوا كثارا لان زيارتنا لاهل الميت كانت بعد اسبوع وقد بدات حركة التعزية تقل فقد سمعوا الموعظة الجميلة كانهم لم يسمعوا شيئا البتة وقد عجبت لامرهم فقلت في نفسي لعلهم طمطمانيون لم يفهموا معنى الذي قيل امامهم

ولم يكد ينهي بطرس كلماته الدرية حتى وافى البيت فوج موءلف من ثلاثة رجال ولان المكان واسع والزوار

قليلون بقينا في اماكننا بل بقي بطرس جالسا واضطررت ان لا اتحرك لانه هو الزنبرك لهذه الزيارة

ولما جلس القادمون جديدا فتح احدهم فاه بالكلام وفيما هو يهم ليتكلم حزنت على نفسي وقلت يا لله ما اجهلني فاني لا افهم شيئا من العادات والتقاليد ولم امرن نفسي على الكلام اللازم في كل حين — اما المتكلم فبدا بقوله «هذا حال الدنيا · الموت محتم على كل الناس لامهرب منه · كان اسكندر الكبير قد فتح الدنيا باسرها وهو في الثلاثين من عمره ····»

وفيما هو يخبرنا عن الاسكندر قلت في نفسي· موعظة ثانية تاتينا وقد حتمت علي ان اقصد المكتبة العمومية بعد هذه الزيارة لاطالع حياة ذلك الرجل العظيم الذي كل تاريخه مواعظ لازمة للبشر وبالاخص في حالات المصائب وقد تحولت الى اصغاء تام لاسمع المتكلم فلا تفوتني الموعظة الثانية ولكن شد ما كان فشلي عندما سمعت منه نفس الموعظة التي اخبرها بطرس ولهذا استات في داخلي ايما استياء

عندئذ هم رفيقي بالنهوض لانه راى فوجا اخر مؤلفا من قادمين اقتربا من الباب فكبست على ركبته وهمست في اذنه اني اريد ان ابقى حتى نخرج كلنا معا فسايرني بطرس

مضطرا ودخل القادمان فتليا افشين التعزية وجلسا • وما هي الا لحظة حتى فتح كبيرهما فاه بالكلام فسمعته يقول «ما هان علينا موت المرحوم ولكن امر الله لا مرد له هكذاقدروكان فسبحان الدائم • يحكى ان اسكندر ذي القرنين شعر بدنو اجله •••»

هنا تنحنحت قليلا فلاحت مني لفتة الى صديقي بطرس فرايته يخط وجهه ابتسامة ولكن في الحال ادرت وجهي عنه الى ناحية المتكلم لاسمع حكاية اسكندر ذي القرنين وبعد سماعي جملتين من حديثه بداوجهي يخط ابتسامة عريضة وللحال خوفا من ان تنتهي الابتسامة بضحكة ونحن في هيكل الحزن والخشوع نهضت ونهض معي رفيقي فقلت «بالاذن بلا قطع حديث حضرة المتكلم ونهاركم سعيد جميعا»وخرجت وتبعني بطرس ولما صرنا خارج البيت امسكني صديقي مستوقفا اياي وقال والسم يقطر من وجهه «ما نفعك ونفع علمك اذا كنت لا تفهم ان في بيوت اهل الموتى لا يقولون عبارة «نهاركم سعيد» وقد افهمتك عندما دخلنا ان لا تلفظها فبلعتها فلماذا نسيت هذا الامر عندما خرجت»؟

فقلت له دعني من عتبك يا بطرس واخبرني أين قرات القصة التي قلتها في بيت الميت فقال انه سمع جده يرويها

في ما تم شيخ القرية. فقلت واين قراها جدك . فقال لابد انه سمعها من جده . فقلت له اذا في مرة ثانية اضبط التاريخ وقل هكذا حدثني جدي عن جده عن جده حتى تصل الى معاصر لاسكندر الكبير

فضحك بطرس وصفح عني وقال وهو يصافحني لياخذ سبيلا غير سبيلي

«اضحك بسرك فاننا لم نكمل الساعة في بيت المرحوم والا لكنا سمعنا حكاية اسكندر الكبير لا اقل من عشرين مرة »

فاجبته ولعلني قلت الصواب . «لو كنت موضع اهل الميت لقلت للناس المرحوم استراح من هذه الدنيا ومن مواعظكم »

وودعت بطرس وسرت في طريقي فالتقيت بجماعة عرفت منهم واحدا ولما راني دنا مني مسلما واخبرني انه ذاهب لياخذ بخاطر ال المر فاخبرته اني ات من تعزيتهم الله يساعدهم . فاعاد «الله يساعدهم» وزاد «ويعينهم» وقد اخبرته كيف اني دخلت بيت الميت ولم اقل عبارة تعزية اعزي بها المساكين لاني لا افهم الاصطلاحات فضحك مني وقال «اهي مسالة فلسفة. احك قصة فيها مغزى وعز بها الجماعة » فقلت وما عساك ان تحكي انت؟

فبدا يخبرني قصة اسكندر ذي القرنين ولكني قاطعته قائلا اني اعرفها واشرت له ان يلحق باصحابه ليعزوا الجماعة وليساعدهم الله — ويعنهم — ويرحمهم

المتشائم

المتشائم

ما كنت اعهد فيه الشر والميل الى تضليل الناس بل عرفت صديقي الياس البقاعي شابا مهذبا رقيق العواطف محبا يداب في عمله ويغار على مصالح زبنه ولكنه في الايام الاخيرة انقلب باخلاقه وطباعه فصار اذا ساله ضال اين الطريق الى الشمال يدله على الجنوب غير مبال بعقبى ولا ابه بجناية يرتكبها بتضليل الاخرين

جلست الى جانبه في احد الايام وسالته لماذا تبدل باخلاقه حتى سود الناس صحيفته فرايته يهز راسه عاضا شفته السفلى عضا قويا وما تكلم غير هذه العبارة جوابا «اليت ان لا اهدي ضالا ما دام الضلال في البشر واذا رايت اعمى له امل بالنور احمل على امله حتى لا يبصر لا في الحقيقة ولا في الخيال»

قلت. الياس الياس ما الذي صار لك. قل لي ما انت بذاك الذي اعرفه بالياس البقاعي اذ ترجل غيره ماذا دهاك

اجاب. اتظن ان اتعابي سنين طوالا غيرتني لا والذي خلق المكاسب والمخاسر ان ما غيرني من الياس البقاعي الذي تعرفه الى الياس البقاعي الذي تراه الان لهو التطفل مني على انارة سبل الضالين فان التائه في سبيل حياته لاضمن حالا من الذي تفتح عينه العمياء فيرى الكون

كله تحت باصرته ويجعل عينه فما واسعا يريد ابتلاع ما يراه»

قال هذا وتنهد ثم قص علي حكايته وكيف آل اليه الحال

«تعلم اني شغلت في الولايات المتحدة خمس عشرة سنة احمل صناديق بضاعتي فابيعها على تجارنا في الداخلية وقد جعلت شعاري في مطلع تجارتي حتى اخرها ان اكون مخلصا لزبائني نصوحا لهم لاضمن حسن حالهم المعقود بنجاحي وكان لي زبون في بلدة صغيرة في الداخلية ابيعه من بضاعتي كما اريد وامحضه النصح في المشترى والمبيع كانه شريكي في العمل. وفي ذات يوم دخلت محله في احد الاسفار فرايت محله مزدحما بالصناديق المكردسة هنا وهناك وبالبضائع المبعثرة بلا ترتيب ولا نظام يبيع زبائنه وفي فيه سيكار طويل فقلت في نفسي

«عريب والله كيف انه يرزق مثل هذا الزبون وهو على ما هو عليه من عدم الترتيب »

وفي تلك الساعة وانا انتظره ريثما يفرغ من سيدة كانت تساومه على قميص لاجلس واياه وابيعه قائمة بضاعة حرك فكري سيكاره فقلت في نفسي يجب ان اسال هذا الرجل اذا كان محله مضمونا في شركات السوكرتاه فان حاله

عرضة للحرائق فلاسالنه

وهكذا كان فعندما جلست اساله عما هو بحاجة اليه من البضائع سألته اانت مسوكر؟ فاجابني «نعم مسوكر عند هذا» قال هذا واشار بيده الى ناحية في محله فلم افهم معنى اشارته ولكنني ظننت انه اوما الى روزنامة معلقة على الحائط وفيها اسم الذي يضمن له المحل ولهذا ملت عن زيادة الاستفهام واستانفت الشغل وبيدي قلمي اكتب به مطلوبه من الاصناف

وفي منتصف العمل عاودتني فكرة الضمانة فكررت عليه سؤالي فقلت له «قلت لي ان محلك مضمون ولكنني لم افهم عند اية شركة من شركات الضمانة فاعاد الي اشارته باصبعه وقال «قلت لك عند هذا. هنا هذا الا تراه»؟

اما انا فتفرست على خط مستقيم من اصبعه الدال فلم اجد سوى صورة ولكنني خجلت منه فلم استوضحه اكثر ومضيت في شغلي ولما انهيت كتابة القائمة وقد بلغت نحو خمسة الاف ريال طويت القائمة وخبات بضاعتي ووقفت مترددا محتارا بامري كاني كنت ناسيا شيئا ولم اكن بالناسي ولهذا ظللت واقفا موجما وزبوني ينتظرني لاصافحه واودعه واذهب من محله

عندئذ قلت له. اسمح لي قبل ان اودعك ان انقل اسم

الشركة التي ضمنت لك محلك لان ذلك لازم لدفاتري فكل زبون يجب ان اعرف الشركات التي تضمن محله «فضحك مني وقال «عجيب امرك قلت لك عند هذا عند هذا الا تراه»؟

فقلت لا ارى غير صورة

فقال «نعم صورة ولكنها ايقونة مار انطونيوس شفيع كنيستنا في الضيعة»

هنا ابتدات رواية مضحكة فسري عني قليلا وضحكت اولا ضحكة انفتح لها قلبي لسذاجة زبوني وبعدئذ سالته بلهجة ازدراء خفي . العل لمار انطونيوس عنده شركة للسوكرتاه وكم سعر الالف عنده؟

فقال «كان الناس يشورون علي بالسوكرتاه وانا اؤجل الامر حتى لم يعد لي من حجة عليهم بالاهمال وكل الوكلاء الذين قصدوني للسوكرتاه طلبوا مني مئة وخمسين ريالا فقلت في نفسي ارسل مقابل ذلك مئة ريال لمار انطونيوس كل سنة وهو يحمي محلي احسن من اي انسان لان عجائبه مشهورة وهو حامي ضيعتنا فاوفر خمسين ريالا وانفع بلدي وقديسها»

فقلت . ولكن اذا احترق محلك بماذا يعوض عليك مار انطونيوس انه ياخذ منك كل سنة مائة ريال ولا يعطيك

سنتا واحدا اذا احترق محلك لا سمح الله اما الشركات فانها تاخذ منك مئة وخمسين ريالا ولكنها تدفع لك كل سنت تخسره اذا احترق المحل

وجلست ساعتين بكاملهما انير بصيرة ذلك الزبون حتى افهمته ان المسالة ليست للحماية فمار انطونيوس عجائبي وعظيم ولكنه لا يعوض على الخاسرين اما الشركات فانها لا تحمي ولكنها تضمن الخسارة. ولم اذهب من عنده حتى افهمته كل شيء بهذا الصدد واقنعته ان يستدعي احد وكلاء شركة الضمان ليضمن محله

في تلك السنة احترق محل زبوني المسكين وبعد اسبوع وردني منه خبر ان الشركة اعاضت عليه الخسارة بعشرين الف ريال وقد ارسل الي داخل الرسالة حوالة على البنك بكل حسابي معه. فكتبت اعلمه ان يعتبر بما جرى وان يفتكر قبل ان ينشيء محله الثاني بامر الضمانة فلولا مراحم الله التي ساقتني اليه تلك المرة لانير بصيرتـــه واحول السوكرتاه من مار انطونيوس الى احدى الشركات لكان حضرته في هذا الوجود واتعابه سنين عديدة في ذمة ذلك القديس

بعد سنة واحدة احترق محله ثانية واستدعيت الى بلده من الحكومة كاحد الدائنين الكبار وقد كان لي بذمته اثنا

عشر الف ريال وهناك مكثت يومين ومن هناك عدت الى نيويورك كما ذهبت وزبوني في السجن بدعوى احراقه محله عمدا فقد عثر البوليس على شمعة مخصوصة لايقاد النار في المحل ولم تات عربات الاطفاء حتى كانت النار قد التهمت الاخضر واليابس وفي الاستنطاق اقر انه اوقد النار لياخذ الوف الريالات من شركات السوكرتاه وقد اخبر المحكمة اني انا سببه ولهذا دعتني للشهادة فاخبرت القاضي بالقصة من اولها الى اخرها وما اخرها الا عودتي من تلك البلدة خاسرا ارباحي واتعابي خمس عشرة سنة عند ذلك الزبون وهذا ثمن فتحي باصرة اعمى وارشادي ضالا وقيادتي ساذجا الى طريق العرفان

وقال لي صديقي الياس البقاعي ختاما لحكايته التي اثرت بي كثيرا

«اوتلومني لماذا انقلبت من الياس تعرفه الى الياس تراه وتسمع به في هذا الحين يضل الناس ويعمقهم في ضلالهم !

يا ليته بقي مسوكرا عند مار انطونيوس بل ياليتني لم افتح بصيرته وارشده الى الضمانة الحقيقية التي علمته ارتكاب الجرائم»

* * *

سمعان النادر

سمعان النادر

هكذا يسمونه اليوم «سمعان النادر»وقد كان اسمهقبل ان هاجر الى اميركا سمعان فقط . لم يكن احد يعرف كنيته ولكنه كان رجلا مشهورا بقبائحه حتى اغنى اسمهعن كنيته فكان اسم سمعان كافيا في تلك المقاطعة السورية ليعني لدى كل واحدمنسا كنيها رجلا شديد القوة يقطن الكهوف في الجبال يترصد ابناء السبيل ليفتك بهم ويسلبهم حوائجهم .

ولكنه بعد مرور سنوات على حياته تلك المرة اراد ان يتوب فلم يفلح لان الناس في قريته لم يصدقوا توبته والحكومة لم تكن لتابه لها بل كان رجالها يلاحقونه من قرية الى اخرى حتى انقطع رزقه وكاد يجوع في حين لا امل له بالخلاص من عيشه على تلك الصورة

ولهذا هاجر سمعان اما كيفية حصوله على المال الذي لزمه للنفقات فامر لا يحتاج الى ايضاح لان من اعتادشيئا واراد الرجوع عنه فلم يستطع لا بد ان يعود اليه . فاللص اذا تاب ثم احتاج الى مال يعود لصاوهكذا سمعان رأى ان الضرورة تدعوه للهجرة الى اميركا هربا مما هو فيه من سوء الحال والضغط الشديد عليه من الحكومة وبالرغم

من افتكاره بالتوبة عاد مضطرا الى طرق الجرائم ليقضي لبانته

وجاء سمعان الى اميركا وكان قد درس حياة السوري فيها من بعض السوريين الذين صادفهم في مرسيليا وعلى الباخرة من الذين كانوا سابقا في اميركا ثم هاجروا اليها ثانية فعرف منهم ان مثله لا يستطيع ان ياتي بحركة الا اذا كان يقبل ان يعيش اجيرا يرضى بالكفاف من العيش ولهذا قبل ان يضع رجله على اليابسة صمم النية على ان يقوم بمشروع كبير يجمع فيه المال الكثير من ابناء بلاده المنتشرين في طول اميركا وعرضها

ولم يلبث سمعان بضعة ايام في نيويورك حتى استدل على بعض عناوين لاناس يعرفهم في الداخلية فقصدهم ونزل عليهم وكان على غير ما يأملون ان يروه مثال العفة واللطف والمسكنة

والصيت اذا تحرك يسبق الريح وقد تحرك صيت سمعان بانه قدم الى اميركا ليكفر عن خطاياه التي ارتكبها في سوريا وانه تاب اليه تعالى وقد نذر ما بقي من حياته في خدمته ولهذا جاء ليجمع من اهل بلاده نذورا لكنيسة وطنية تبنى في قريته

سمعان الشقي قادم الى اميركا ليجمع نذورا? ولماذا

لا؟ فما على المشكك الا ان يجتمع به خمس دقائق فيرى انه بالحقيقة تغيرمنشيطان جهنمي الى ملاك ارضي. رجل مسكين يبدا تناول الطعام برسم الصليب وينهي الأكل بالصلاة ويجلس في قوم لا يتكلم الا اذا سئل. لا يتدخل في خصوصيات الناس ولا يقول الا الشيء المرضي الجميع يكثر من ذكر ايات الله وطاعته في كل حال من الاحوال واذا ذكر امامه احد الناس تضرع الى الله تعالى بتوفيقه. واذا نفحه احدهم نذرا يغدق عليه الادعية الحارة. الى ما هنالك من هذا السلوكالذي كان ادعى الى دهشة العارفين اياه او السامعين به من ان يروا كوكب الصبح اتيا بمركبة نارية بجانبالمسيح

ولهذا سمي في ديار الهجرة «سمعان النادر» لانه نذر نفسه لله تعالى وتاب عن ضلاله موءمنا بالاخرة. وعلى هذا الاسم طارتشهرةالرجل فطفق يجول في اميركا من بلد الى بلد اخرومن ولايةالى اخرى يختلط بالناس مظهرا لهم كلمسكنة داعيا اياهم الى تكريس قليل من المال في خدمة الله لقاء تكريسه كل حياته من اجله تعالى

وكان ان صيته وصل الى البلاد وهناك انتشر بين جميع السكانان سمعان قد نذر حياته لخدمة الرب وفي البداءة صعب عليهم التصديق الا ان الاخبار الواردة متتابعة

من كل جهة كانت توءيد الخبر حتى امن عليه الجميع وصدقوه فصار اسم سمعان عندهم يعني التوبه والندامة بدلا من الرذائل بكل فروعها

اما سمعان فثابر على عمله مثابرة شجعه عليها اقبال الناس على مشروعه وتالبهم على مساعدته حتى انهم في بعض الاماكن انشاوا من اجله لجنات للاخذ بناصره وعينوا من قبلهم وفودا يدورون معه من منزل الى اخر ليجمع ما تجود به ايادي المحسنين فكان الناس يغدقون عليه الاموال بعضها للنذر وبعضها تعطى اليه بصفة شخصية لنفقاته الخاصة فكان سمعان يضع الكل في جيب واحد قائلا للدافعين انه لم يات اميركا ليجمع لنفسه بل لله ولهذا يخلط الكل معا ليذهب الى صندوق الله

وكان يجمع بقوة تاثيره على عقول الناس الذين عرفوه لصا وقاطع طريق ثم راوه تقيا وناذرا حياته لله اما الغرباء الذين عرفوا عنه شيئا فكان اكثرهم يكثر عليه السوءالات وبعضهم يساله عن ورقة الاذن من مطران او خوري او جمعية فلم يكن يحير جوابا على ذلك ولكنه كان يستعين بالذين حوله وهولاء يقصون على الناس تاريخه المجيد وكيف انقلب من شيطان الى ملاك ومن ذئب الى حمل وهذا كان كافيا شر السوءالات ومغنيا عن الف اذن او ورقة او نيابة

الا ان سمعان في السنة الاخيرة شعر بميل الناس عن مشروعه قليلا فصار يخشى الانخراط في جماهير الناس لان بعضهم كان يساله عن المقدار الذي جمعه فما كان يجيب الا بانه لم يحصه بعد وان بركات الله تضر في المجموع اذاعده. وبعضهم صار يساله عما اذا كان ارسل منه شيئا الى البلاد فكان يجيبهم بان يقلب الحديث من اميركا الى الصين تخلصا من الاجوبة وهربا من التعمق في هذا الموضوع الذي يكره فتحه والتداول به خوفا من التحري

اخيرا عزم سمعان على الرحيل والعودة الى الوطن فام نيويورك مزودا بالادعية من نساء ورجال و كلهم كان يتمنى اجره في الاخرة ويحسده على مكانته في عالم التقى والصلاح ويامل ان ينفعه الله بادعية سمعان بفضل ما تبرع به من المال الذي حصله في اميركا بعرق القربة

وعاد سمعان النادر الى بلاده في عام ١٩٠٣ واول شيء فعله ان دخل الى قرية مسقط راسه دخول الشهير المعروف بفضله وقد زاره كل سكانها في اليوم التاني وصاروا اليه اقرباء ومحبين وهو صار مقربا من الجميع ومحبوبا ولم يعد من احد يخشى شره و يتجنبه

ولم يمض الشهر على وصول سمعان النادر الى قريته حتى بدا بالبناء فراجت الاشاعات عن انه بدا ببناء الكنيسة

فكان اذا ساله احدهم يهز راسه دون ان يفتح فمه بكلام ولكن شد ما كان عجبهم منه عندما قامت البناية على الاساس وظهرت بيتا لا كنيسة فعادت الاشاعات الى الظهور بان سمعان يبني بالمال الذي جمه في اميركا بيتا لنفسه بدلا من بيت الرب. وقد وصلت الاخبار عن ذلك الى اميركا فعجب الناس منها وندموا على ما فعلوه نحوه وما قدموه اليه من الاكرام والاحتفاء وصاروا يوبخون بعضهم بعضا كيف انطلت عليهم حيلته وكيف انهم لم يتحروا امره منذ البداءة

اما سمعان النادر فلا يزال حيا يرزق وبالرغم من ان سنوات الحرب اودت بحياة تسعة اعشار القرية التي يسكنها فانه ظل وعائلته حيا وزادت ثروته عن ذي قبل اضعافا

وقد زاره مواطن له عاد من اميركا بعد الهدنة وعندما ساله عن اموال التبرعات التي جمعها قال انه بنى بها بيتا للرب وانه سكن البيت لان الرب لا يسكن البيوت ولما كان هو ناذرا نفسه للرب تكفيرا عن معاصيه اضطر ان يسكن البيت الذي انشاه من اموال المتبرعين الى بيت الله

فساله ذلك الزائر. كيف رايت المهاجرين السوريين في اميركا؟

فقال انهم ذوو قلوب سليمة ولا يردون طالبا خلا نفرا

منهم اكتسبوا من اميركا قلة الدين فهم يهزاون بالمشاريع العمومية ولا يهمم شان وطنهم

ـ او انت تلومهم؟

ـ نعم الومهم لانهم يعاكسون على ذوي الامال في وطنهم فلولا اولئك المتفلسفين القليلي الدين لجمعت مبلغا كافيا لتشييد كنيسة في هذه القرية ولكن المبلغ الذي جمعته لم يكن ليبني زاوية من كنيسة

ـ ولهذا السبب يظهر انك بنيت بيتا لنفسك بتلك الاموال لئلا تذهب ضياعا اليس كذلك ؟

ـ نعم لهذا السبب عينه

ـ الحق معك . ما اطيب قلوب المهاجرين واسلم نياتهم على انني ادعو لهم بان يكثر عدد الذين نذروا حياتهم للرب مثلك بينهم لعلهم يتعلمون ويتعظون

حبال الغسيل

حبال الغسيل

نيويرك بلد عظيم فيه من الخلائق ثلاثة اضعاف سوريا من العريش الى الطوروس ومن البحر الى الصحراء ولهذا فمن اعتاد الفضاء لا يهنا له عيش في قفص مدنية الجيل العشرين وكثيرا ما ندم كهول وشيوخ جيء بهم الى نيويرك على قدومهم فجلسواالى زاوية من زواياالبيوت يندبون الحظ ويلعنون الساعة التي وصلوا بها الى هذه البلاد التي بالرغم من كل عظمة فيها لم تكن عند امالهم وتصوراتهم فان ركب الحمار الى الغدير والمشي الى الكرم في وسط الغبار والطين والنوم على المرج في ساعة الظهر ابان تلهب اشعة الشمس الجماد اجمل في نفس ابن سوريا القديم من الوقوف في شارع برودويي حيث تزدحم الكارات والسيارات والعربات يلتفت المارون هنا وهناك ليروا لانفسهم مخرجا يعبرون منه الى ناحيتهم المقصودة امنين الاخطار. والكوخ المبني من اغصان الشجر القائم في الكرم اجمل لامنام على سرير في منزل لا تدخله اشعة الشمس دقيقة في السنة. والجلوس عند النافذة في البيت السوري حيث يمتد البصر الى اميال فيشرف الناظر على الاكام والاودية اجمل من بناية ولورث ذات الطباق الثماني والخمسين. والقمباز الذي يستطيع

معه لابسه ان يجلس به كيفما شاء القرفصاء والاربعاء آنا متكئا واخر متمددا دون ان يشعر بشيء يشد على ساقيه وفخذيه وركبتيه اجمل والطف من التقيد بسلاسل البنطلون

ظل العم بو غانم يراسل اولاده في نيويرك ملحا عليهم بان يستقدموه اليهم وهم بالرغم من توفيقهم بالاشغال لم يكونوا يرون مناسبة في استقدامه لاملهم بالاوبة الى الوطن حيث يجتمعون به بعدما يكونون قد جمعوا مبالغ من المال تكفيهم موءونة العناء في هذه الحياة الا انهم لكثرة ما الح عليهم اتفقوا على استقدامه قائلين انهم يصرفون معه بعض السنين ثم يوءوبون كلهم ان لم تعجبه حياة اميركا.

كان العم ابو غانم في الطريق الى نيويرك يتامل في عظمة اميركا كما ترسم اليه مخيلته حسبما كان يسمع املا ان يصل اليها بالسلامة واذا مات بعد اسبوع لا يهمه لانه بذلك يكون قد حصل على امنيته وزار الجنة ولكنه منذ وصل ابتدا يشعر بنفسه انه كان مغرورا بتصوراته التي لم ير لها اثرا في نيويرك وما قطع بضعة أيام حتى صار يشعر بميل قوي عن عظمة اميركا وبشوق عظيم الى حالة قريته الخالية من كل اثر للمدنية.

ولم يكن العم ابو غانم ليعمل عملا في نيويرك لان انجاله كانوا بغنى عن عمل ابيهم الشيخ وما كان همهم

بعد وصوله الا تكييف خاطره وراحته وتسليته عن تشوقاته الى الوطن فكلما وجد احدهم فراغاً عنده صحب اباه الى فرجة من فرج نيويرك ومتنزهاتها ومتاحفها العظيمة ليسليه ويسري عنه ظنا منه ان اباه لا بد ان يعجب بالعظمة والضخامة اللتين يشاهدهما فيشغل بما يراه عقله وافكاره ولا يعود لذكرى القرية والوطن . الا ان العم ابو غانم لم يكن ليرى في كل ما وقعت عليه عينه من العظائم الاختراعية والاصطناعية والتاريخية ما يدهشه فكان انه عندما مشى جسر بروكلن من الاول الى الاخر وراى البواخر العظيمة تمر تحته والقطارات المتتابعة والكارات المتلاصقة والعربات المتسارعة قال لرفيقه من ابنائه ان الجسر على الساقية في طريق الكرم اجمل من كل هذا وان غرفة من مياه ذلك الجدول افضل من كل ما في اميركا وان غسل الرجلين في تلك المياه الباردة الذ للنفس من هذه الفخامة والعظمة. وعندما رجع به احد ابنائه من برونكس بارك ساله رايه في القطار العالي الذي كانا عائدين عليه فقال ومعدته تصعد وتنزل وراسه دائخ ونفسه زاهقة: ان الحمار الذي كان يركبه من الضيعة الى غيرها اجمل في عينيه من كل ما في اميركا من القطارات والعربات. وعندما الح عليه ابناؤه بان يلبس القبة ويعقد الربطة ليذهبوا الى الكنيسة

كاد العم المسكين يبكي من غيظه ولم يبخل على الكنائس واميركا بمسباته وعلى حظه وغروره باللعنات والتجديفات وقد قال لاولاده: ما هذه العيشة التي تعيشونها في هذه البلاد الجهنمية هناك بلاد الراحة لا ربطة في الرقبة ولا عقدة على الخناق ولا سلاسل على الوسط ولا قيود في الرجلين اه يا بلادي لو يسمح لي الدهر ان ارجع واعيش اسبوعا واحدا تحت سمائها ثم اموت فتكون عيني شبعت ومت مطمئنا!

ومضى على تذمرات العم بو غانم نحو من سنة وكرهه لكل ما في اميركا يزداد يوما عن يوم وابناوءه ينفقون ما استطاعوا لتسلية خاطره وتنزيهه عن الهموم المتلبدة في راسه ولكن عبثا حاولوا نزع ما انطبع على صفحات دماغه من ان كل عظيم في اميركا ليس بشيء عجيب وان البساطة في سوريا وخلوها من اثار العظمة مما يجعلها جنة النعيم.

وقد صار العم بو غانم مضرب المثل بانه لم يجد في اميركا ما يعجبه حتى صار اذا جلس بين قوم في سهرة او زيارة يقضي الوقت بمناظرة الاخرين بان كل شيء في بلادنا اجمل وانما يقابله في هذه البلاد ليس بعجيب ولا عظيم. فبغل المكاري احسن من قطار الجيل العشرين وجسر الساقية اجمل من جسر بروكلن وطريق الكرم احلى

من الافنيو الخامس ومرعى الماعز اظرف من السنترال بارك والنومة تحت البلوطة اهنا من النومة في القصر الابيض الى ما هنالك من تعاليل رجل قطع الستين من عمره وصارت بلاده وان تذمر منها حينا كل شيء في حياته بل هي حياته

وبناء على هذا صارت احاديث العم بو غانم من المسليات للسامعين تضحكهم تشابيهه بين حالة سوريا البسيطة ومعالم اميركا واختراعاتها وقط لم يقر لاميركا بشيء من المعجبات الا مرة واحدة وكان ذلك في سهرة حافلة وفي اخرها بعد ما فرغ من حطه من قدر كل اختراع وعظيم في اميركا واذ ساله احد الحاضرين:

ـ اي يا حضرة العم بو غانم بالله عليك قل لنا الم تر في كل اميركا ما يعجبك؟

فاجابه العم بو غانم وقد اغمض عينيه لحظة ثم فتحهما وهز رأسه هزتين ببطء وتنحنح قليلا فسوى قعدته وفتح فمه بالكلام فقال:

لم يحيرني بكل ما رايته في هذه البلاد الا امر واحد وهو حبال الغسيل فقد شاهدت حوائج الغسيل معلقة على الحبال من بيت الى اخر على مسافة بعيدة فكيف توصلت الغسالة الى تعليق الحوائج على الحبل امر لم استطع حله قلت في عقلي ان المشي على الحبل ليس بالهين ومع ذلك

فالحبل اضعف من يحمل امراة وفي يديها حوائج للتعليق واذا امكنها ان تمسك الحبل بيد من يديها لتنتقل الى وسطه فكيف تتمكن من تعليق الحوائج وربطها بالحبل بيد واحدة! هذا ما حيرني وهذا ما ادهشني !

ولا حاجة الى وصف ما كان بين الجالسين السامعين بعد كلام العم بو غانم فان رب البيت صار يرجوهم ان يخففوا اصواتهم لئلا يصعد البوليس اليهم فيعنفهم على ضوضائهم ولما شبع القوم من الضحك عاد العم بو غانم الى حديثه فقال: والله اني راجع في هذه السنة الى البلاد وسوف اجبر الاولاد على ان يشتروا بكل ما معنا من المال حبالا من اميركا فاننا نستطيع ان نبيعها بارباح طائلة في كل المدن السورية.

فاجابه احدهم ولكن عليك ان تشتري ايضا الايدي التي تعلق الغسيل على تلك الحبال.

ما فيها شي

ما فيها شيء

اميركا اعظم مدرسة يدرك فيها المرء علومه في الحياة ويكتسب خبرة تعود عليه بالنفع الحسي اذ تجعله رجلا قادرا على الانخراط في هذا المعترك العالمي مما لا تأتيه المدارس ولا الكليات ولا الجامعات

الا ان هذه المدرسة العظيمة كثيرا ما يظهر فيها وباء اجتماعي هائل وعوارضه انتفاخ الاوداج مع ضيق في الجبين وقد بحث الاطباء بهذا الوباء فما وفقوا الى معرفة اصله وادراك اسراره فبقي عنهم مكتوما لا يستطيعون وصف علاج لمحوه من عالم الوجود

هذا الوباء الوخيم اصيب به مهاجر سوري بعد سنة من وصوله الى اميركا في احدى مدن الداخلية وقد جاءه عن طريق العدوى اذ زار يوما بيت صديق له فراه يطالع في احدى الجرائد العربية وكان هو يحسن القراءة البسيطة فقط لا غير فجلس الى جانب صديقه يشاركه في المطالعة فسرهما المناظرة بين صاحب الجريدة وزميل له او بالحري المهاترة والمشاتمة وطفقا كلاهما يسبحان بحمد كاتب تلك المقالة لقوة عارضه وتبريزه باستعمال الكلام الجارح وقد تشوقا كثيرا لمعرفة ماذا يقوله المناظر ردا على ما قرآه في جريدة

«السناء» فاتفقا اثئذ على ان يشترك نخلة الطبطابي بالجريدة الثانية «منار الامة» ليتسليا بوجهتي المناظرة ويتلذذا بالردود والاجوبة وبماذا يقول فلان عن فلان وهذا عن ذاك ثم يحكما على المبرز

بعد خمسة ايام جاءت جريدة «منار الامة» الى محل اقامة نخله الطبطابي اما جريدة «السناء» فظلت ترد على صديقه ديب ابو غانم فكان كل يوم يجتمع الاثنان فيطالعان الجريدتين بانعام نظر ولذة فائقة وكانا يختلفان اونة ويتفقان اخرى على من كان الاقوى حجة من المتناظرين او بالاحرى المتشاتمين

وظل الصديقان كذلك حتى انتقلت منهما الرغبة في مطالعة الصحف العربية الى التحزب كل منهما للجريدة المشترك فيها· فصارت اجتماعاتهما لا للذة بالمطالعة كجاري العادة بل للمناظرة بينهما حول اي من الصحيفتين تضرب على وتر الحقيقة ومن من الصحافيين اقوى قولا وادعم حجة

وظل هذا المكروب السام يتقوى في دماغ كل من هذين القارئين حتى عشش فيهما وبنى صروحه الباذخة واول فعله بهما انه حرك اوتار الحماسة فصار اذا طالع احدهما صحيفة يشارك صاحبها بنظراته ويسبقه بشتائمه ويتمنى لو انه

قادر على الخوض في معتركهما ليكرمح الصحافي الاخر ثم تدرج بهما فعل ذلك المكروب الى الاختصام فالعداء

وانتهى الامر ان صار الصديقان عدوين اذا راى احدهما الاخر حول عنه وجهه او بصق على الارض متمتما بعض كلمات لا تكاد اذنا شفتيه تسمعانها. وبلغ بهما العداء الى درجة انهما اصبحا يريدان الايقاع كل بالاخر

بعد ايام جاءت جريدة «السناء» فكاد لب ديب غانم يطير فرحا اذ راى اسمه بذيل مقالة تبلغ العمودين من الجريدة وقد قراها ديب مرارا واخذها بيده الى جيرانه والسرور مالىء وجهه والرقص يقيم قلبه ويقعده فكـــان يدفعها الى الجيران ليطالعوا مقالته ضد صاحب جريدة «منار الامة» ولما دخل على احد السوريين ودفع اليه عدد الجريدة ليقرا فيه مقالته اجابه ذلك السوري بانه لا يعرف القراءة ولكنه رجا منه ان يقراها له فظل ديب نحوساعة يهجىء الكلمات ويعيد العبارات من الاول الى منتصفها ثم يعيدها ثانية حتى يتوفق الى اجتيازها حاملة شيئا من المعنى واحيانا يبلع كلمة او كلمتين او يتقياء من فيه كلمة او اثنتين ليستر حاله وتارة يهز راسه ويسب في وكيل الجريدة لتغييره بعض الكلمات

والحق ان المستر ديب ابو غانم كتب الى صاحب

جريدة السناء يخبره انه واقف معه وانه يود لو انه يستطيع الكتابة ليسلق ذلك الصحافي العدو سلقة قوية. فما كان من صاحب جريدة السناء الا انه حبر مقالة ترقص لهاعجائز وائل وامضاها ديب ابو غانم. فكان ما كان من فرح صاحبنا ديب

وبلغ مسمع نخله الطبطابي ما كتبه صديقه بالامس ديب ابو غانم عدوه اليوم في جريدة السناء فاحتدم غيظا وتاكلت كبده نار الحسد اولا ثم لعب بدماغه ذلك المكروب فترك عمله وطاف على السوريين يسالهم ماذا قراوا بامضاء ديب وحاول ايجاد عدد من «السناء» فلم يفلح لان ديب كان المشترك الوحيد فيها

ظل نخلة تابى عيناه المنام كل الليل فكان ينهض من سريره طالبا لنار قلبه مخرجا الى الناحية التي يريدها لينتقم من جاره الى ان هونها الله عليه فقال في نفسه: عجبا اني اعرف ان ديبا يهجيء الكلام في القراءة فكيف كتب مقالة في الجريدة. ثم قال انه اذا كان ديب يستطيع تحبير المقالات فنخله الطبطابي اي هو نفسه يمكنه ان يوءلف مجلد واذا كان من اغلاط فصاحب الجريدة يصلحها له وكل من سار على الدرب وصل. اخذ نخله بيمناه قلما وكتب رسالة طويلة عريضة بخطوط تشبه خطوط الانهر على

الخريطات واشبعها سبا وشتما بصاحب جريدة السناءومكا تبها ديب ابو غانم ولما انهاها تنفس الصعداء وفرح فرحا لامزيد عليه ثم وضعها بظرف وسيرها بالبريد الى جريدة منار الامة وسارت على الطائر الميمون فوصلت ادارة الجريدة حيث هلل لها القوم ورحبوا ترحيبا

ولا حاجة الى ان نقول ان نخله ظل خمسة ايام يسائل نفسه اتنشر منار الامة له رسالته ام لا حتى جاء عددها وما كاد يقرا امضاءه تحت صفحة بكاملها حتى اصبح كالماخوذ من شدة فرحه فكانت خطواته تنقله على الارض كالحجل الماشي يدخل بيتا ويخرج منه الى اخر حتى ادخل فحوى رسالته الى راس كل سوري في ذلك البلد

وامتد خلاف نخله وديب الى الجالية السورية عموما في تلك المدينة فانشطر القوم فيها شطرين هذا يلف لف صاحب السناء وذاك يلف لف صاحب منار الامة وصارت الاجتماعات السورية في المنازل والحوانيت اشبه ببيت البورصة الصياح سلطان والخبط بالايدي قائد فرسان والسباب والشتائم جيوش جرارة حتى اضطر الجيران الاجانب الى رفع تظلمهم الى البوليس

وظل القوم على هذه الحال حتى تاصلت العداوة بين الحزبين ونتج عن ذلك انتشار الجريدتين في البلد حتى

انه لم يكن من سوري يعرف القراءة او لا يعرفها الا وطلب الجريدة التي تحزب لها مشتركا اما بعدد او باكثر. ومضت الشهور وكتابات ديب تصارع كتابات نخله على صفحات الجرائد الى ان تلاشت الاسباب

وذلك ان عقلاء القوم في نيويرك او الذين يخافون على جلودهم من سياط اصحاب الجرائد اجتمعوا في احد الصوالين فقرروا مصالحة الصحافيين وباحبولة سياسية تمكنوا من الجمع بين الضدين فصالحوهما وكبسوا يد كل منهما بتشك مليح

ذكرت الجريدتان الحادثة في الصوالين وكل منهما اشارت الى ان العداء منها ضد الرصيفة لم يكن الا نتيجة سوء فهم وان المناظرة المنزهة عن الشخصيات لا بد منها ولهذا فهي لا تحمل حقدا لجارتها ولا لصاحبها ولما كان كل سبب قد زال فانها تصافح رصيفتها مصافحة اخوية للنهوض بهذه النزالة المحبوبة الى ما يؤمل لها من ذروات التقدم والارتقاء

ولا تسل ايها القارىء كم احدث هذا الخبر من الاشمئزاز في نفس كل من ديب ونخله وفي نفوس كل السوريين في البلد الذي كانا مقيمين فيه وقد دهش القوم لهذا الصلح الذي جاء بغير اوانه فافسد عليهم اللذة التي كانوا

يتناولونها من مطالعة الصحف العربية

وبعد ايام ظل القوم على العداء بين بعضهم البعض وانما دون اجتماعات ولا معالجات ولكنهم كانوا واحدا واحدا يرجعون الجرائد الى اصحابها معتذرين لانفسهم عذرا على عدم استطاعتهم الاشتراك في الوقت الحاضر

واجتمع الصحافيان اجتماعا في احد الصوالين فسال الواحد الاخر كيف الشغل؟

ـ ايام المناظرة كان ولا احسن منه!

ـ نعم هكذا كان حالي واما اليوم فالاعداد المرتجعة تزداد يوما على اخر

ـ يظهر ان القوم لا تلذهم الجرائد الا في حال المناظرة

ـ اذا كانت المناظرة من المروجات فلماذا لا تتناظر

ـ انا ارتاي ذلك فلنبدا غدا وانا اكون البادىء بمقالة من «كعب الدست»

جمعتني احدى السهرات برهط من القوم وكان بينهم رجل يطالع احدى الجرائد العربية برغبة فائقة غير مكترث باحاديث القوم فدنوت منه ودفعت اليه جريدة كانت بجيبي حفظتها لمقالة فيها لم اقرا ابلغ منها بموضوعها بعنوان «حياتنا السورية» وقلت له ـ يظهر انك تحب المطالعة فخذ هذا العدد واقرا المقالة الفلانية

فتناول مني ذلك العدد وبعدما اجهد نفسه بمطالعة العنوان مع السطر الاول طواها .واعادها الي قائلا «ما فيها شيء» ثم استانف القراءة في الجريدة التي كان يطالعها فتطلعت الى الموضوع الذي كسب شوقه الزائد في قلب السهرة الحافلة فرايته يقرا خطوطا تحت عنوان «ذلك الصحافي السافل»

فرجعت الى مكاني مرددا عبارته «ما فيها شيء» ولم اعد احشر نفسي بين القوم فيما بعد

المال يتكلم

المال يتكلم

في اول سنتين لوجود موسى البدل في اميركا سعد بثروة ليست بالقليلة اذ كانت المهاجرة السورية لم تزل تكتب الصفحة الاولى من تاريخها. وقد كان يقدره الناس بصاحب خمسين الف ريال وبعضهم يضعه فوق هذا المقام من الثروة. والحقيقة انه هو نفسه لم يكن عارفا بمقدار ما معه بالتمام لان الغنى جاءه لام ساعته. فلم يعطه فرصة للعد والحسبان ولم يكن حضرته يامل بمثل هذه الثروة الا انها اتته عفوا بفضل الاحوال والصدف وما اكثرها في هذه البلاد

بعد ما صار في هذه الدرجة من الغنى افتتح محلا رسميا واستخدم ماسكا لدفاتره ومعينا له في العمل وقد عين عملاء لـــه في بعض البلاد الاوروبية والاسيوية و كثرت بضائعه وتراكمت وافتتح حسابا في البنك وطفق يبيع ويشتري واذا كان التجار اصطلحوا على اقفال محالهم عند الساعة السادسة كان حضرته يتناول العشاء في محلـــه ثم يستانف العمل الى ما بعد العاشرة ليلا وظل يعمل باجتهاد كلي النهار كله وبعض الليل حتى جاء راس السنة الجديدة فعمل حسابه بعد تقويم المحل فوجد انه لم يربح الوفا من الريالات بل بضع مئات تنقص عن نفقاته الخاصة

لم يفتكر ان السنة الاولى هي سنة تاسيس لا يلقى عليها امل كبير بارباح كثيرة ولما كان قد اعتاد ان يربح خمسين الف ريال في سنتين فقد مقت المحل الرسمي واسف للحالة السالفة اذ كان يتناول صندوق البضاعة الاسطمبولية ويبيعه قبل ان يفتحه بربح الف ريال نقدا دون تقييد ولا نفقات محل وعمال. ولهذا عمد الى التغيير فصرف الكاتب والمعين بسلام وظل هو في المحل ماسكا الدفاتر وكل شيء ولو انه استطاع تصريف البضاعة والرجوع الى حاله السالفةلما تردد ولكن كيف يمكنه ذلك وقد علق ببنك وزبائن له عليهم ديون وحسابات جارة وعملاء لهم عليه حقوق وعندهم له طلبات؟

اضطر المسكين ان يظل تاجرا رسميا سنة اخرى وتبعتها ثالثة ورابعة وخامسة وفي كل سنة ياكل اصابعه ندما لانخراطه بالتجارة مع ان ميدان الربح واسع بغيرها او عن غير طريق المحال وكان يشتهي الخلاص من تلك الوقعة المشؤومة ولا يجد لنفسه منفذا ليخلص براس ماله القديم. وكلما عن له التخلص صغر دائرة اعماله فكان كالبزاق «بيتي على ظهري علا» كل سنة ينقل الى محل اصغر فاصغر اقتصادا وظنا منه انه بذلك يتغلب على النفقات

فتكثر ارباحه وما درى انه بذلك يصد الربح عنه ويقضي عليه بالابتعاد

وحمل موسى البدل اتعابه زهاء العشرين سنة ظل فيها مقدرا بخمسين الف ريال وكان يقول في نفسه حينما يفطن لحاله : عجبا ففي تلك الايام براسمال خمسين ريالا ربحت خمسين الف ريال بسنتين ثم بخمسين الف ريال لم اربح خمسين ريالا بعشرين سنة!

وهذه معضلة المعاضل لم يكن ليحلها موسى البدل او ليعرف سببها وكل ما كان يفتكر به امر المصروف ففي كل سنة كان يضيق على نفسه الخناق اكثر من قبل حتى انتهى اخيرا امره بان اقفل المحل وصار صرافا

بالصرافة وجد موسى ان الفرصة للغنى الكثير قد فتحت بابها امامه وراى انه اصبح ذا مقام عزيز عند قومه وبالاخص التجار اولئك الذين كان يلح عليهم ويرجو منهم بذل وتواضع ان يؤثروه على غيره فيجابروه ويشتروا من بضائعه ولم يرحموه صاروا عندما صار هو صرافا «بانكير» مثل «السمن والسكر» فكانوا اينما صادفوه يهزون يده بشوق زائد ويسالونه عن صحته وصحة العائلة ويشفعون سؤالاتهم بالتمنيات الحسنة ويعدونه بالزيارات البيتية الى ما هنالك من ضروب المجاملة فكان موسى يتناول هذه المعاملة

بكل قلبه ورئتيه اذ يتنفس تنفسة طويلة تستغرق دقائق لاعنا التجارة التي كابدها سنين ولم تعد عليه بارباح وكان فيها ممقوتا مرذولا متاملا بالمقام الذي احرزه بعدما صفى شغله وصار صرافا يقرض هذا وذاك وبعد ان صار الناس يقبلون يديه ليثق بهم وقد كان يقبل ايديهم وجها وقفا ليوءثروه على الشيطان ويساعدوه على تصريف بضاعته.

الا ان دوام الحال محال فما جاءت سنة ١٩٠٧ بعاصفتها المالية في تجارة نيويرك حتى تقلقل سوق التجارة السورية وعقب ذلك افلاسات اكثرها لزبائن حضرة «البانكير» السوري

وخرج موسى من تلك الزوبعة قانعا بذهاب ثلاثة ارباع ثروته وكل اصحابه الذين صيرتهم اصحابه ثروته المرحومة ومهنته التي جعلت له مقاما في عيونهم وانما سرعان ما تلاشى ذلك المقام وتحول الاصحاب الى اضداد وذلك الشوق الكثير عندما يتلاقون ببعضهم الى كره وبغض وحقد مما لم يكن ليمحى

منذ اشهر غير كثيرة احب طائفة من الناس واكثرهم اصدقاء موسى البدل الا (انهم اليوم ارباب محال تجارية) ان يعقدوا اجتماعا يدعون اليه كبار القوم ليتداولوا بامر مهم فكتبوا اسماء عديدين من تجار وادباء وشبان وباعة جزدان ولما ذكرت لهم اسم موسى البدل سمعت من افواه الكل

جوابا واحدا قائلين — هذا؟ وما نفعه؟

قلت — كيف وما نفعه اليس من الرجال؟ او لم يكن تاجرا كبيرا وصرافا يزدحم الناس في محله والسعيد السعيد من كان ينال منهم حظوة في عينيه؟

فسمعت من الكل جوابا واحدا قائلين — اي نعم كان من زمان ولكنه اليوم لا يسوى شيئا فقد خسر ماله وليس من يهمه امره

كنت كثيرا ما اسمع في احاديث الناس ترديد المثل الاميركي «المال يتكلم» ولم اكن احله المحل الذي يضعه فيه بنو قومنا حتى ذلك الاجتماع اذ ذاك تاكد لي ان المرء عندهم ليس باصغريه قلبه ولسانه ولا باكبريه روحه ودماغه بل بشيء واحد — ماله

حي دفين

حي دفين

منذ ابتدات المهاجرة السورية الى اميركا صارت طريقها تيارا يجرف العشرات من السوريين والمئات والالوف وقد كانت في السنين الاولى مقتصرة على المرتزقين الذين تضيق في وجوههم بلادهم فيطلبون لانفسهم توسعا في العالم الجديد الا ان التيار صار يتناول من سوريا غير هوءلاء بالاعداد الكبيرة ويصبهم في العالم الجديد.

لم يكد حبيب الزيتوني ينهي دروسه العالية في كلية بيروت حتى بكر بخمر الهجرة لانه راى بعين علومه ان بلاده فقيرة لا مطمع فيها ولا مطمح اما في اميركا الغنية فميدان اوسع امامه يستطيع فيه ان يصعد الى ذروة الطموح الذي في نفسه.

وبالرغم من بكاء ابيه وعويل امه كلما ذكر امامهما انه ذاهب الى العالم الجديد ما كان ليعدل عن فكرته وكم كان ابوه يستعد لالهائه عن الامر فتارة كان يطمعه بالزواج واخرى بتحويل كل ما عنده من رزق وغيره الى اسمه ولكن حبيبا لم يكن ليحيد قيد شعرة عما عول عليه وذهبت توسلات امه ادراج الرياح.

وهكذا امّ حبيب اميركا حاملا شهادته المدرسية ومبلغا

من المال ولما دخل الى نيويورك دهش له العارفون لانه كان لابسا احسن منهم وزائدا عليهم بوردة من «الجمال الاميركي» تزين صدره وكان كانه قضى سنوات عديدة في اميركا يستطيع الذهاب من شارع الى اخر بفضل اللغة الانكليزية التي كان يتكلمها بزلاقة لسان كالعربية ولم يكد يقطع بضعة ايام بين معارفه حتى جعلهم يخجلون من انفسهم لانهم بالرغم من كونهم عتقا في اميركا لم يقدروا على افادته شيئا من سؤلاته فانه لما طرح عليهم سؤاله اين هو الهبدروم لم يسمع جوابا من احد الا ظهور علائم الذهول على وجوههم ظانين ان هذه الكلمة تعني اسم حيوان عجيب في جنينة الوحوش «كما يدعونها» ولما سالهم ايضا اذا كان احدهم يعرف اين المتحف العمومي سمع احدهم يقول انه لا يعرف غير «كاسل غاردن» متحفا يجتمع فيه الناس من كل الاجناس.

بناء على هذا كله لم تطل اقامة حبيب الزيتوني بين اخوانه السوريين وكانهم هم اصبحوا تعبين من تفلسفه امامهم وخائفين من مستقبله في هذه البلاد لانه ما كادت قدماه تطاء ارض اميركا حتى صار يسال عن الملاهي والفرج بدلا من تفتيشه على شغل او صنعة تطعمه لقمته وتعود عليه بتوفير كم ريال للايام المقبلة ولهذا ترك حبيب السوريين وطفق

يدرس الحياة الاميركية لان جيبه لم تزل دافئة بالليرات التي تناولها من ابيه ولم يجيء ختام نصف السنة الاولى حتى «نظف» صاحبنا وعاد الى اخوانه السوريين يسالهم كيف يجب ان يشتغل فجادوا عليه بالنصائح مظهرين له ان اميركا تحتاج الى سواعد مفتولة لا علوم ولا اكابرية وبالرغم من عدم موافقته لهم على ارائهم اضطر الى القبول لانه شعر بقرب الحاجة المالية.

واول خطوة منه نحو العمل كانت انه اصطحب احد الشبان من قريته وكان بياعا يحمل الجزدان ويدور على الابواب يبيع بضاعته وشغله على قدر الاحوال كان مصطلحا.

ولسوء حظه ان صديقه البياع لم «يسنس» في ذلك اليوم خلافا لعادته فتشاءم الرفيق منه وحسب ان فشله في ذلك اليوم مسبب عن ذهابه معه وبالاخص لهندامه الحسن والوردة التي تشكل بها. هذا من جهة البياع اما من جهة حبيب فهو ايضا مقت الصنعة واحتقرها وقال في نفسه لو كانت ثروات العالم كلها معلقة بهذه المهنــة فليست ليرضى عنها ولهذا اخبر صديقه بعد الشكر انه لا يستطيع مشاركته فالح عليه صديقه ان يبقى معه وانه ما همه عدم النجاح في ذلك النهار لان المستقبل لا بد يفتحها امامهمـــا فما كان ليقبل معه حبيب.

الح عليه صديقه هذا الالحاح لما راه راغبا عنه ولكن في الحقيقة ازاح حبيب بتركه اياه هما ثقيلا عن صدره الا انه اراد مجاملته فالح عليه اولا ثم قال له اذا كنت تريد هكذا فلك خاطرك.

واضطر حبيب الى مغادرة نيويورك لمدينة في الداخلية حيث يقيم رجل صديق والده وكان بلغه قدوم حبيب الى نيويورك فكتب اليه يستقدمه للعمل في محله وكتب اليه ثانية وثالثة ولكن حبيبا انف الاجابة بادىء ذي بدء ولكنه لما شعر بالحاجة كتب اليه معتذرا عن تاخره وانه ذاهب اليه في اخر الاسبوع.

تعرفت على هذا الشاب في تلك المدينة اذ كنت ممثلا لاحد مصانع الكيمونا وكان التاجر في تلك المدينة احد زبائني فلما شاهدته في المحل انست اليه فدعوته لمناولة العشاء معي في النزل وقضيت معه كل المساء وفيه افرغ لي جعبته بالشكاية من هذا الزمان واهله وبالاخص من التاجر الذي يشتغل له كل شيء فهو في محله ماسك دفاتر ومدير ومشتري وبائع ومكنس و«معبي اركيلة» وناقل الخضرة الى المنزل الى ما هنالك وقد احزنني جدا قوله انه في اخر الشهر اذ يتناول معاشه سيترك البلد الى كندا فلعل فيها نجاحا اكثر من الولايات المتحدة وقد خبرني ان

اهله في الوطن ليسوا بحاجة الى شقائه في اميركا ولكنه هاجر اليها بالرغم من الحاحات ابويه وبكائهما ولهذا لا تطاوعه نفسه ان يعود اليهما بغير ما امله من النجاح ولكن ذلك لا ياتيه الا مع الايام·

وعرفت بعد مدة ان صاحبنا غنى مواله كما يقولون فامَّ كندا وهنالك زادت بلواه لان البلاد باردة جدا وهو ذو نحافة بدنه ولم ير ما يشبع نفسه من المطامح ولا ما يريه اللقمة الاولى من تلك المطامح·

وقد اخبرني سوري كندي صادفتـه في نيويورك انه يعرف حبيبا بحالة يرثى لها وان اخر ما عرفه عنه ان انسانا حركته عوامل الشفقة عليه فنقده بضعة ريالات ليعود الى مدينة ذلك التاجرفي احدى مدن الداخلية·

وقلت في نفسي سبحان الله كيف ان الدهر يضغط على النفس البشرية فتكسر ارادتها وتقوم ارادته!

ومضى على هذا خمس سنوات لم اعد اسمع عنه شيئا خلالها حتى طرحتني النوى مطارحها فرمتني في بلدالتاجر المذكور انفا وهناك دخلت محله فشاهدت حبيبا وعلى وجهه كتب السقم سفرا طويلا الا انه حسن الهندام جميل الملبس فسلمت عليه وبدلا من‌ان ادعوه لمناولة العشاء معي سبقني والح علي بالذهاب معه الى مطعم في المدينة فقبلت

معه وفي الميعاد المعين اجتمعت به فسالته عن حاله وماذا يعمل ورجوت منه الافاضة عن تاريخ حياته ففتح فاه بالكلام واول ما قال لي كانت هذه العبارة بعدتنهد عميق:انا حي دفين!

ــ عجبا تشكو واراك احسن حالا مما مضى العلك تشكو الما؟

ــ كلا لا اشكو شيئا لا الالم ولا العسر ولا شيئا من ذلك وان ما اشكوه فقداني ثمينا كان معي يوم عرفتني في اول الامر٠

ــ اعذرني اذا كلمتك بعدم تكليف فقد رايت منك يوم عرفتك انك خلو من كل ثمين فالحاجة كانت سلطانة عليك

ــ كنت محتاجا ولكن نفسي كانت حية اما اليوم فانا غني وقد حصلت على غناي كما ترى على ضريخ نفسي فانا حي دفين٠

ــ لقد اعدت علي هذه العبارة«حي دفين»فماذا تعني بها؟

ــ اعلم اني جئت الى اميركا بشهادتي العلمية فلم تساعدني على دهري فلما صرفت كل ما كان معي من مال ابي اضطررت الى الاشتغال للناس غصبا عن نفسي التي كانت تابى وقد حاولت قبلها ان اعمل كما يعمل ابناء بلادي الذين يشتغلون اما بالبيع واما بالاجرة فلم اجد من نفسي

مقدرة على العمل ولما كان الفكر يحدثني ان ارجع الى بيت ابي كانت النفس تنازعه حياء من والديّ اللذين تركتهما ولم يريا مني ما يحقق امالهما بعد ما انهيت علومي بالرغم من الحاحهما علي بالبقاء تحت عنايتهما توهما مني بان اميركا مطمح امثالي فخابت امالي ولما غالبت النفس غلبتني فلذت الى عزتها وانا اضمر لها انتقاما هائلا وهكذا عدت الى هذه المدينة الى محلي القديم ولكي اتخلص من التحكم والفقر مايرت صاحب المحل فتزوجت من ابنته وقتلت نفسي فانا اليوم كما تراني رب محل كبير ورب بيت ذي اثاث فخيم ولي زوجة صالحة ولكني لم انظر اليها نظرة حب في حياتي. تراني اليوم اتمنى ان اعود الى حالتي القديمة يوم كانت نفسي لا تزال في قيد الحياة

مسكين حبيب الزيتوني انه في الحقيقة حي دفين!

زوانا لا قمحهم

زواننا لا قمحهم

لا يكاد الشاب تطأ قدماه ارض اميركا ويبدا بالعمل في ميدانها الواسع ولا يكاد يبسم له النجاح حتى يسير مع تيار النسيان لما كان عليه مغترا بحاضره

يدخل الشاب السوري ميدان اميركا خائفا مذعورا امام عظمة هذه البلاد وكثرة حركتها ثم يتدرج فيها حتى اذا تم له الانخلاط بين مجموع العناصر تصور انه اصبح بعيدا عن حالته القديمة

يقول المثل العربي — من تعلم الالف والباء بلغ انفه السماء — وهو مثل ينطبق تمام الانطباق على كثير من الشبان السوريين يتعلمون الالف من مدنية اميركا فيتوهمون انهم صاروا من اساطينها وانهم في ما حصلوه منها لا يشق لهم غبار ولو ان الدعوى تقتصر منهم على هذا الوهم لما اضرت كثيرا ولكنها تحملهم الى انكار اصلهم احيانا لتوهمهم انه معيب عند القوم الاجانب

هذه كانت حالة الشاب رفيق المدور بعدما دخل عراك اميركا التجاري وصار قادرا على كسب معاشه فيها. كان في بلاده يلبس العباء والمداس واذا اشتاق الى المدينة لبس الطربوش ولكنه في اميركا كان يخيط

ثيابه عند احسن الخياطين وكان لا يخلو صندوقه من اربعة طقوم في كل سنة كل واحد بلون وزي وكان يلبس لكل يوم قبة وربطة وجراباته تماثل الوانها الوان الربطة والقميص

في بلاده كان اصحابه لا يعرفون القراءة والكتابة ولم يجسر في كل حياته هناك على الانفراد ببنت من البنات ولكنه في اميركا صار اصحابه في العمل من اجمل الشبان هنداما واحسنهم تهذيبا وكان محبوبا من عدد من البنات الحسناوات اللواتي كن يتحاسدن على معاشرته

الا إن هذا السلوك لم يكن ليسمح لرفيق ان يتقدم في ماليته لان الاصحاب والصديقات والتنزه والتفرج ومـا يدعونه «سبورتنس» كان ماحقا لكل ريال يفضل من معاشه بعد نفقاته الخاصة

وكان ابوه يكثر من الرسائل اليه طالبا من الله ان يسعده ليسعد اهله المحتاجين ويستقطر قلبه تحننا على عائلة ابيه الكثيرة الافراد ويذكره ان جارهم الذي رهن البيت عنده لقاء خمسين ليرة قيمة «الناولون» له يشد على ابيه الخناق كلما راه وهو يخشى ان يجبره الجار في المحاكم على تحويل البيت لاسمه اذا كان لا يدفع المبلغ مع الفائدة

كل هذا بالايام لم يعد بموءثر على ضمير رفيق اي تاثير

كان فكانت اجوبته الى ابيه مقتصرة على المواعيد الى فرص احسن لا بد ان تصدفه حتى عيل صبر الوالد فاضطر الى بيع الدار والقدوم الى اميركا مع العائلة لانه عرف ان ابنه تامركونسي اصله وعاف اهله ولم يعد يبالي بحالة ذويه ماتوا او عاشوا سواء عنده

ولما عرف رفيق عزم ابيه على القدوم مع عائلته كانت رسائله الواحدة تلو الاخرى يوقفه عن هذا الامر مدعيا ان احوال اميركا ليست جيدة وقدومه اليها يجلب لهم وله التعاسة الا ان الحالة التي كان يعانيها الاب لم تعد محمولة عنده ولهذا بالرغم من تخويفات ابنه باع الدار فوفى ما عليه لجاره منها وام اميركا متكلا على الله لعله يستطيع ان يعوض ما خسره بجريرة ابنه البكر رفيق المذكور

ولما راى رفيق عناد ابيه هلع قلبه وصار حزينا لا يطيق عزاء كانما انقضت عليه صاعقة غير حاسب لها حسابا ولكنه اضطر ان يستر الحال ويصبر على بلواه. وكان لا بد ان ينقطع مدة عن عشرائه وان يبتعد الى امد عن طَرق معاشراته ضنا ببعض المال اللازم له في اول عهد قدوم اهله لما يلزمهم من نفقات بتاسيس بيت والبسة الى ما هنالك

وغني عن الشرح ان صبر رفيق فرغ من اول اسبوع

لوصول اهله فقد انفجر صدره عليهم انفجارات هائلة واسمعهم غليظ الكلام وشكا دهره لكونه ابنا لهم وهم بحالتهم كالفلاحين ولم يستح ان يقول امامهم انه يخجل امام الغرباء عندما يعرفون انهم اهله

وازداد سلوك رفيق هذا سوءا عندما اعيى باقناع والده بان يلبس قبة مكوية وربطة ووالدته بلبس البرنيطة والفرو فان والده صرح له انه جاء الى اميركا لا ليلبس مثل الاميركان بل ليشتغل ويعوض عن خسارته ويقوم باود صغاره وامه قالت له انها قاربت سن الشيخوخة وان صباها قد ولى فهي لا تريد ان تشابه السيدات بهياتها وعليها واجبات نحو بيتها الجديد والواجب نحو بنيها وزوجها ان تقتصد

وكان رفيق اذا صدف احدا من اهله في الشارع يحاول اما الرجوع بطريقه او الانتقال الى جانب اخر لئلا يمر احد معارفه فيعرف انه احد هوءلاء الناس. وكان لا يتكلم مع احد منهم الا تحت سقف المنزل

اما الاب فعرف بداخله ان لا امل بابنه رفيق ولهذا شمر عن ساعد الجد فدخل ميدان العمل مجتهدا وكذلك امه واخوته الصغار فالكل كانوا يعملون لكي ينهضوا من عثرتهم لا يهمهم من شوءون البلاد التي حلوا فيها الا العمل ولما

يئس رفيق من إصلاح اهله الخارجي وضاق ذرعه بهم ودعهم الى احدى مدن الداخلية

—سبع سنوات مرت ورفيق بعيد عن اهله اما اهله فكانوا قد تناسوه للهوهم بالعمل عن الافتكار به بعدما راوا منه نفورا عنهم وسلوكه معهم ذلك السلوك السيء واستحياءه بهم وهم اهله ولهم عليه فضل ودين

في هذه السنوات السبع كان ابو رفيق قد حصل على ثروة فاشترى بيتا لصغاره وكان يامل ان يشتري بيتا ثانيا في مطلع السنة الثامنة وان يفتح محلا لبيع البضائع بالجملة على ابناء بلاده حملة الجزادين وصغاره يتعلمون في المدارس العمومية وهو حاصر كل همه واجتهاده بجعلهم رجال المستقبل بعيدين عن كل ما اتصف به اخوهم الاكبر

اما رفيق فقد عاش لنفسه بعيدا عن اب هياته غير لائقة بمن كان ولده مثل حضرته وام تلبس ارخص مما يلبسه الغجر واخوة يبيعون الجرائد على قوارع الطرق كاولاد الشحاذين

وقد شكر الله انه بعيد عن اهله والا فان حبيبته «مالي» لا مراء تبتعد عنه الوف الاميال اذا عرفت من اي الاهل هو «مالي» لحبها رفيق وتدرج به حبها الى الهيام وقد تعرف بها بالصدفة فحاكاها وحاكته وشاهدها مرة اخرى في

الشارع فرفع لها قبعته وهي حيته ثم اجتمع بها فهز يده بيدها واخذ منها عنوانها ثم دعاها الى مناولة غداء معه فصار يكتب اليها رسائل غرام حتى صارت له حبيبة يهدي اليها الهدايا ويدعوها مرة في الاسبوع الى التفرج على الصور المتحركة او الملاعب التمثيلية

كل هذا ورفيق يلح على حبيبته ان تتزوج به وهي تابى قائلة انها لا ترضى الا بما يرضي اباها وان اباها اذا عرف انها تحب اجنبيا يقتلها لا محالة وقد سالها مرة ان تسمح له بالذهاب الى بيتها ليسال يدها من ابيها فمنعته واخافتها بانه قد يغضب ابوها عليه وعليها وتكون العاقبة سيئة· ولما دعاها الى الهرب معه زجرته وكادت تغضب عليه لولا انه راضاها وسحب كلامه معتذرا اذ ذاك صرحت له مالي انها وان تكن تحبه فوالدها كل شيء عندها ورضاه غايتها ومهما يكن الامر فخاطره الاول والاخر وان الفتاة التي تهرب مع الشاب ليست بنت اصل فان الشرفاء لا ياتون بمثل هذا

وظن رفيق ان حبيبته من كبار القوم ولهذا لا تحب ان تعمل الا بارادة اهلها وتذكر حالة اهله مقابلا اياها بحالة اهلها كما يتصورهم فعظم عليه الامر وهاله واكد جيدا انه اذا عرفت مالي اهله لا بد ان تبتعد عنه وتندم على حبه

وازداد هيامه بها حتى لم يعد بقادر على احتماله وغالب فكره بالذهاب سرا الى والدها لعله يستطيع اقناعه فيرضى عن زواجه بمالي وينتهي الامر· واخيرا قال «لنضرب هذه الطينة بالحائط» وحملته قدماه في ذات ليلة الى منزل حبيبته لاول مرة وكان في طريقه خافق القلب ظانا انه ذاهب الى سراي احد الامراء او الملوك الا انه شد ما كان عجبه عندما مشى طويلا وقضى نحو ساعة يسال المارين والبوليس عن الشارع الذي يسكن فيه ذوو مالي ولما اهتدى ووصل الى الرقم الذي يطلبه راى هناك بيتا كذب ظنونه فاعاد قراءة الرقم مرارا ظانا انه غلطان ولما قرر الامر دخل وقد بدا يشمئز فدق الباب فخرجت اليه امراة عجوز بهيأة مخيفة تتوكا على عصاها فسالها عن المستر فرتس والد مالي فقالت له انه لم يعد بعد من عمله ولا يعود الا بعد منتصف الليل ولكنها ادخلته لتعلم من هو وماذا يريد

فدخل الى غرفة ليس فيها الا سحارة عند الباب وفي صدرها طاولة خشبية لها اربع قوائم عليها صحون وسخة وباحدى القراني وجاق للطبخ وفي داخلها سرير عليه فراش مغطى بالوسخ·

ـــ من حضرتك يا مستر

ـــ انا رفيق ملور وقد جئت لارى المستر فرتس بامر

ـــ المستر فرتس لا تقدر ان تراه هذا المساء فاذا شئت ان تقول لي حاجتك فلا باس فانا مسس فرتس

ـــ اانت مسس فرتس والدة مالي؟

ـــ نعم او انت الشاب الذي يريد ابنتنا؟

ـــ ما جئت لاتكلم بهذا ولكني احببت ان اتعرف عليكم

وما انهى رفيق هذه العبارة حتى دخلت مالي ولما وقع بصرها على بصره رقص قلبها وكاد يثب من مكانه ولكنها هدأته بالقوة التي يستجمعها المحتار في ساعة مثل الساعة التي وجدت فيها ولكن وجهها تلبس بالاصفرار وشفتيها تغطتا بالبياض وعينيها تضرمتا بالدم اما هو فوقف لها ولم تكن حالته باحسن من حالتها الا انه ود ان يختم مهمته بالتي هي احسن فقال لها انه اضطر ان يزور منزل اهلها لانه ذاهب الى نيويرك في تلك الليلة اذ بلغه ان اباه حرمه من الميراث وتخلى عنه ولهذا جاء ليودعها الى ان يعود.

وخرج رفيق من ذلك المنزل ويده على انفه واخرى تشتغل طرفي بنطلونه لئلا يصل اليه الوحل الكثير وهو يقمز قمزا حتى وصل الى الشارع العريض فتابع سيره الى حيث تنفس الصعداء

وحقيقة الحال انه صدق بذهابه الى نيويرك في تلك الليلة وهذا كل ما صدق به من كلامه الى التي كانت

حبيبته قبل تلك الساعة وقد تذكر قصة الابن الشاطر التي اوردها المسيح في الانجيل فوطن النية على ان يعود الى حضن ابيه وامه

ولما عاد رفيق الى بيت اهله احتفل به ذووه ولما سالته امه رايه بالزواج واذا كان يوءثر الاميركية على السورية قال لها —

«يا امي مثلنا يقول: زوان بلادك ولا قمح الغريب• وانا اذا اردت الزواج فيجب ان يكون رايك بالعروس قبل رأيي ويجب ان اتاكد اولا انها «تعبي اركيلتك قبلما تجلس بجانبي»

ذو اللحية الطويلة

ذو اللحية الطويلة

اميركا اوقيانوس عظيم قليل هو المعروف منه وما هو مجهول عن عالمه اكثر بكثير من الظاهر المعلوم وهكذا هذه البلاد فان فيها من الاسرار في الحياة ما يعيي الفكر عن العد والحصر

كثيرا ما يعجب المرء بحياة بعض الناس فيقول في نفسه عجبا والله كيف يعيش هذا وذاك وذلك وهم لم ياتوا عملا في حياتهم

ومع ان اميركا بلاد المادة والمادة لا تاتي الا بالعمل — العمل الحقيقي في ميدان واسع يتسابق فيه الخلائق تعدو عدوا فان تعب احدهم سقط على الطريق فداسه القوم في مسيرهم وراح كانه ما كان وبالرغم من ان اميركا بلاد الجد والكدح لا تخلو من قوم عائشين كغيرهم لم تعمل ايديهم عملا ولم تعرق جباههم يوما ولم تتحرك اقدامهم في ذلك الميدان العملي ولا خطوة

هوءلاء عائشون بين الخلائق المتزاحمة المتسابقة في الزحام وراء تنازع البقاء ووجودهم بينها هو من العجب بمكان.

كنت اتعجب مع المتعجبين في كيف يعيش مخائيل

فلفل ذلك الشاب الذي يلبس افخر اللباس ويتناول طعامه في اجمل النزل والمطاعم ويصرف المال كانه مرتكن على «بنك اوتومان» او كانه ابن روكفلر او مورغن او استور. ومن اين ياتيه المعاش لا احد يعلم! وكيف يتمكن من البذخ والتبذير وهو «شمام هواء قطاف ورد» في كل ايام حياته لا احد يعلم! مع ان الكثيرين يشتغلون الليل والنهار يعملون في اليقظة ويهدسون في الاحلام بالنجاح ولا يحصلون على اود حياتهم الا بالغصب

مخائيل فلفل اعجوبة ويوجد كثيرون امثاله لا احد يعلم كيف استطاعوا ان يعيشوا كسالى في وسط لا تاتي اللقمة للمرء فيه الا بالجد مغموسة بدم القلب وعرق الجبين .

لما دخل مخائيل فلفل ارض اميركا لم يكن ذا ثروة ليعيش ترفا دون عمل بل كان كغيره من المهاجرين الذين يصلون اميركا ومعهم زاد يوم واحد ولكنه كان ذا ثروة طبيعية وهي القوة على الاستنباط والابداع بالحيل

عرف منذ حل ارض اميركا ان الشاب مثله لا يستطيع ان يفتح تجارة تدر عليه الارباح الكثيرة لانه خلو من راس مال اما اذا شاء ان يصعد الى مصاف التجار عن طريق الاشتغال بالاجرة او البيع او ما شاكل فامامه سنون عديدة متعبة بالاقتصاد والثبات ولهذا ابتعد عن الاشغال التي

يتعاطاها اخوانه السوريون ففي كل صيف كان يلزم معرضا من المعارض يستاجر فيه خيمة على مدخلها قائمة كبيرة مكتوب فيها هذه العبارة

«منجم شرقي يخبرك عن ماضيك وحاضرك ومستقبلك»

وفي داخلها كان حضرته يجلس وعلى راسه عمامة مقرفصا تحت العباءة البدوية يدخن النارجيلة والى جانبه شاب اميركي لا يعرف كلمة من العربية ينقل الى الزبائن كلمات «علي بابا» المنجم الى الانكليزية

وعلي بابا او مخائيل فلفل يعرف من الانكليزية بقدر ما يعرف ذلك الشاب الامريكي من العربية ولكنهما ماهران بالترجمة بما يرضي الزبون ويعجبه ويدهشه وما يفيد جيوبهما بالدولارات التي تاتيهما عفوا دون تعب ولا عناء

مرة وانا في شارع برودواي شعرت بيدنزلت على كتفي فاوقفتني والفتتني لارى من الموقف فاذا انا امام رجل ذي لحية كبيرة متسربل بالفرو الغنامي وعلى راسه برنيطة حريرية عالية وقد وقعت عيني على عينه فابتسم لنظرتي وذهلت لرؤيته واعملت فكرتي نحو دقيقتين لاعرف هويته حتى جاءتني الذاكرة بمن هو فصحت به —

— ومتى التحيت يا مايك؟

ــ عرفتني والله ولكنك لم تعرف اسمي الجديد احزر!

ــ اسمك الجديد؟ او لك اسم جديد؟

ــ او لم تسمع في طول البلاد وعرضها باسم علي بابا؟ انا هو

ــ انت هو المنجم المشهور؟

ــ انا هو

ــ الله لقد كشفت لي عما بقيت ابحث عنه سنوات وهو كيف تعيش وماذا تعمل

واخذني صاحبي بالكار الى كوني ايلند فادخلني الى مرصده وعرفني على ترجمانه واجلسني وقال ــ اقعد هنا وانظر كيف يعيش صاحبك وباي مقام بين علية القوم وكيف تاتيه زرافات الريالات صاغرة

فجلست عنده والدهشة تستولي علي وانا اراقب كل حركة من حركاته وفيما انا على هذه الحال اذ تكلم الترجمان من داخل الستار قائلا ــ علي بابا . علي بابا!

فعض لي على شفتيه مشيرا الى ان اهمد بمكاني اما هو فوضع العمامة على راسه وتسربل بالعباءة مقرفصا ثم تناول النربيج واخذ يشرق دخان النارجيلة

وكأن صوت النارجيلة علامة للترجمان ان يدخل الزبون فقد تم الاستعداد لقبوله امام عظمة المشرح اسرار

الناس والقابض على ازمة مجاهيل الطبيعة

دخلت سيدة الى حضرة علي بابا ودليلها الترجمان الذي قال لها ان تركع امام ساحة المنجم الاعظم٠وركعت السيدة والى جانبها الترجمان ولما استعد علي بابا للعمل انقطع لحظة عن التدخين وانا اتطلع اليه بشوق زائد ادرس كل حركة من حركات وجهه ويديه ورجليه متربصا تحرك شفتيه بالاسرار عن ماضي تلك السيدة المشتاقة لمعرفة مستقبلها وما عساه يجري عليها متاكدة ذلك بما تسمعه من اسرار ماضيها

وهم الترجمان لالتقاط الاسرار من فم كاشفها علي بابا الذي فتح فاه بالكلام باللغة العربية قائلا —

«قل لهذه العاهرة ان البودرة على خديها كادت تذوب تحت عرقها المتصبب من جبينها»

وما كادت هذه الكلمات تخرج من فمه والترجمان يستعد لنقلها الى السيدة باللغة الانكليزية بل لا لينقلها استغفر الله فكلامه لا ينقل بل ليحوك من مهارته عبارات ملوءة الحيل والخلط حتى رايت السيدة قد نهضت واقفة على اصبعها تكاد تولول وهي تصب الدعاء على المنجم

شعرت في تلك اللحظة ان العاصفة قادمة على الخيمة وعلى كل من فيها ولكن شد ما كان عجبي عندما رايت.

صاحبنا المنجم رابط الجاش كانه ما قال شيئاً يريد الحاق الجرم بالسيدة لان الحق عليها

وسمعته يكلمها بلغتها العربية قائلا — الا ترين اني عرفتك سورية ولهذا اسمعتك ما لا ترغبينه من الكلام جوابا على ازدرائك بنا نحن المتعيشين على الاميركان

وخرجت تلك السيدة من الخيمة وصاحبي المنجم وترجمانه يضحكان وقد قال لي ان تلك كانت المرة الاولى التي حدثت له مع سورية وان القدر ساقني لاشاهد تلك الماساة بعيني

وخرج الترجمان الى خارج الستار ليرمي شباكه على السوق فيصطاد بالبوق بعض المارين الذين تهزهم الاوهام ويوقعهم الاعتقاد بالخرافات في شباك الصيادين المتعيشين وما كنت اهدىء روعي لاستانف الحديث مع صاحبي النبي علي بابا حتى سمعت الترجمان يرجف صوته بخشوع قائلا كلمات الدلالة على ان الشبكة قد جاءت بصيدة — علي بابا ! علي بابا!

فشرق علي بابا بالنارجيلة شرقة طويلة واذ ذاك دخل الوسيط بسيدة كهلة ذات عينين زرقاوين ووجه بائخ فاركعها الترجمان الوسيط عند قدمي النبي علي بابا الذي انقطع عن التدخين هنيهة اذ اعاد الترجمان كلامه قائلا —

علي بابا ! علي بابا !

وكاني بهذا الوسيط لا يعرف غير هاتين الكلمتين من العربية يلفظهما بلهجة غريبة هكذا : الي بابا الي بابا٠ وهو يستعملهما بسوءاله عن كل امر يريد طرحه على النبي الذي يتمتم كلمات بلغته العربية جوابا لاستعلامات وسيطـه فيوءلف ذاك على ذوقه باللغة لانكليزية ما يناسب الحال

وسمعت علي بابا هذه المرة يقول وقد استفاد مما سبق حدوثه

قل يا رب يسر ولا تعسر يا رزاق يا عليم بالحال!

وكنت مصغيا بكل مسامعي للجواب الذي كان على الوسيط ان يقدمه على سوءال السيدة عن ماضيها فلما اخذ الجواب من نبيه قال لها انها متزوجة شابا احبته ولم يكد ينهي عبارته حتى رايت السيدة قد انتصبت غاضبة تصيح: كذب٠ كذب

وللحال انتصب علي بابا وقد عرف ان ترجمانه قال شيئا لم يرض الزبونة فاخذ يصب جامات غضبه على الترجمان ويتهدده تارة بالضرب والرفس وتارة بالبصاق عليه وهو راكع امامه يرتجف ارتجافا كانه صب عليه ماء بارد ولما انتهى تمثيل هذا الدور ورات السيدة ان الغلط لم يكن من النبي ذي العصمة بل من وسيطه الذي بعد ما صبر على

ما ناله من سيده اخذ يتضرع الى السيدة ويسترحمها قائلا: انه غلط بنقله من فم النبي فانها غير متزوجة البتة وان سيده قد طرده لارتكابه هذا الجرم

فرق قلب تلك السيدة وعادت فركعت بجانب الوسيط امام علي بابا ترجو منه العفو عن ذلك المسكين وقد كادت دموعها تنهمل من ماقيها

كل هذا وصاحبنا علي بابا يرغي ويزبد ويتطلع الى ترجمانه تطلعا وحشيا كانه يريد افتراسه

ولما رات السيدة انها كانت السبب لكل هذا الجاري مدت يدها الى جيبها فاخرجت من كيسها ثلاث ورقات مالية كل واحدة بعشرة ريالات وقدمتها الى المنجم مسترحمة اياه بقبولها ليعفو عن ذلك المسكين

فالتفت الوسيط اليها يقبل اذيالها شاكرا جميلها وشيعها الى الباب وهو يزيدها احمالا من الحمد والثناء

وعاد الترجمان الى داخل ولما وقعت عينه على عين علي بابا انفجر الاثنان بالضحك اما انا فوقفت على قدمي هاما بالانصراف واذا بصاحبي علي بابا قد وقف ماسكا بي وقائلا — مهلا يا صديق!

— اخاف ان ارى حادثة ثالثة تذهب بصبري ولكني اشكر الصدف فقد دلتني على مورد كسبك وقد كنت

اجهله واعجب لحياتك

ـ ارايت مثل متجرنا ارباح بارباح دون راس مال؟

ـ لا لم ار متجرا كمتجرك كل راس ماله لحية طويلة

ابن العصر

ابن العصر

هكذا يدعوه الناس الذين حواليه لانه شاب يشتغل لا لمطمح له في حياته ولا ليعيل اهله في الوطن بل ليكسب قليلا من المال ينفقه على اللباس والزينة والتخطر في الشوارع كالعروس في حجلتها ·

فوءاد برزق وان شئت سمه بما سمى نفسه بين الاميركان فرنك براين غريب باطواره واغرب واعجب ما فيه مظهره بين الناس فانه يصرف اوقاته كلها بالاعتناء بلبسه ولهذا دعاه السوريون «باب توديت» اي برجل اخر ساعة لا بعمله ولا بنفعه بل بلبسه ·

والناس كانوا يحسبونه اية من الايات في الهندام وهم يخطئون بهذا الحسبان غالبا لان مراعاة المرء الهندام لا تتطلب صرف الوقت الثمين ولا تستنزف دراهمه اما فواد برزق فشاب كل همه في هذه الحياة ان يشتري ويلبس وان يحافظ جيدا على طيات سترته وكيات بنطلونه وان يعقد الربطة امام المرآة ويصرف على هذا العمل نحوساعة حتى يعقدها بالضبط الكلي وتجيء كانها مسكوبة سكبا بقالب ·

ومن كان همه كفواد برزق على نفسه ومظهره الخارجي

بين الناس لا يهمه العمل كثيرا وهو في حقيقة الحال لولا حاجته الى المال للمحافظة على كسمه لما عملت يداه عملا ولهذا كان دائما كثير الثياب قليل المال·

كان يحب ان يظهر بزي اخر ساعة ولكنه ما كان يتمكن من ذلك لان حالته لم تسمح له كل وقت بما كان يامله فكان يكثر الترداد على محال الالبسة فاذا راى ربطةجميلة دفع ثمنها غير مبال بغلائها لانه احبها ولهذا فثلاثة ريالات ثمنها ليست بكثيرة على لونها الفستقي المائل لون جراباته وفيما يكون ذاهبا الى بيته يمر بمحل القمصان فتحدثه النفس انه بحاجة الى قميص فيدخل الى المحل ويقلب القمصان العديدة ولما كان يضرب يده على جيبه لا يرى فيها غير خمسة وسبعين سنتا فيبقى معه اجرة الكار ويشتري قميصا بالسبعين سنتا الباقية· وعندما تبدا شريطة برنيطته بالتزفيت كان يدخر ريالا بعد ريال ليشتري اخرى بعشرة ريالات وفي ذلك الحين كان يلاحظ انه اصبح بحاجة الى كندرة فكان يمد يده الى جيبه فلا يرى فيها غير ريالين فيضطر ان يشتري كندرة بريالين·

هذا هو «الاب تو ديت» عند السوريين رجل الساعة رجل الدقيقة الحاضرة وكم وكم بينهم من شبان يقتلون وقتهم ويعدمون حياتهم بالاعتناء بمثل هذا فلا يفلحون ولا

ينفعون.

وكان فواد برزق يظهر امام مواطنيه عدم المبالاة بهم وانه يوءثر الاندغام بالقوم الاميركان ولكنه يقول هذا قولا ولا يفعله فان الاميركان لا يحفلون كثيرا بمثله ولكن السوريين يحسبونه شيئا ويغترون بهندامه وهم بدورهم ياسفون لحاله لانه كان ينفق كل ريال على لبسه ولا يدخر لايامه السود ما يقيه ضرورة الاحتياج الى السوى.

في المرقص تعرف حضرتــه على فتاة اجنبية فصار خدينها وقد طار في الفضاء الاعلى بمعاشرتها وكثيرا ما كان ياتي الى المطاعم السورية ويده بيدها ليباهي بها بين رفاقه.

وقد قضى ثلاث سنوات مع تلك الفتاة التي اضطرته معاشرته لها الى الاشتغال الكثير والاجتهاد ليحصل اكثر مما كان يحصله فقد صار عليه ان يقدم لها الهدايا وان يقوم بما توجبه محبته لها من الذهاب الى المسارح والقهاوي والملاهي والمطاعم الفخمة حتى تعلق بها وصار يامل ان ترضى به زوجا اما هي فكانت تعللــه بالامــال ولهذا اخذ يكد ويقتصد ما امكنه ويدخر بعض المال في بنك الحكومة وما هي الاشهر حتى توفر له في ذلك المصرف نحو ثماني مئة ريال ولما سال حبيبته ان تكون خطيبته الرسمية طلبت

اليه ان يشتري لها خاتما ثمينا ولم تكد تزفر شفتيها بهذا الكلام حتى طار قلبه فرحا فاخذها في الحال الى محل المجوهرات وابتاع لها خاتما بثماني مئة ريال وهو مبلغ كل ما كان معه في البنك٠

وقد فرحت حبيبة فواد فرحا لا مزيد عليه ولما وصلت معه الى بيتها واراد ان يودعها اوقفته وسالت امها بدلال امامه ان تاذن لها بان تقبله فاذنت لها وقبلته قبلة واحدة وسار في طريقه يمشي على الارض مرحا وعقله يلاعب ملائكة الاعالي وقد حلم في نومه مرات وراى حبيبته تقبله وتضمه الى صدرها فكان ينهض كل مرة من فراشه باسما ثم يعود الى نومه لئلا يضيع وقتا من المنام الطيب السياحات مع تلك التي فتنت لبه وسلبت عقله٠ ولم يصبح الصباح حتى نهض من نومه وكله فرح وغبطة وكانت ساعات ذلك النهار اطول من اعوام في دائرة عمله فانه كان يعمل في محل شغله كالماخوذ ولا مراء فانه كان في ذلك النهار يشتغل متكلفا وعقله سابح في الفضاء ويناجي حبيبته ويخاطبها فلما يصحو بنداء احد زملائه كان يستانف عمله وانما بكلفة وعناء٠٠

ولما جاء ختام ذلك النهار ذهب ليتناول عشاءه ثم قصد الحلاق فتزين كما يجب وما دقت الساعة الثامنة حتى كان

عند باب المنزل الذي تقطن فيه حبيبته مع امها٠

دق الجرس ودقه ولا مجيب على خلاف العادة مع انه على ميعاد مع حبيبته لقضاء السهرة في منزلها٠ وما كان يستطيع ان يحوك في عقله عذرا لعدم انتظار حبيبته له الا اذا كان هنــالك من سبب كبير ومع ذلك لم يكن يستطيع ان يتوصل بعقله لسبب كبير يمنعها من البقاء في منزلها لاستقباله حسب الموعد ولاسيما انه تركها في الليلة السالفة طائرة فرحا بخاتمه الماسي وقد قبلته لاول مرة بعد حب ثلاث سنوات وباذن امها٠

تردد اكثر من نصف ساعة امام الباب في هل يعود من حيث اتى ولكن كيف يمكنه ان ينام تلك الليلة ولم ينل وطره بمشاهدة حبيبته٠ واعادالكرة على الجرس فكان يدقه دقات طويلة وبعد وقت طويل خرج اليه احد الجيران في الطابق المحاذي لمنزل حبيبته فساله من يريد ولماذا يكثر قرع الجرس؟ ولما اخبره انه يريد زيارة آل حبيبته اجابه الجار بانهم نقلوا بيتهم منذ الصباح وانه ساعد ام الفتاة بيده في قضاء بعض الحاجات لان عربة النقل جاءت في حين ان اهل البيت لم يكملوا استعدادهم ولما اراد السائق ان يعود معتذرا بانه لا يستطيع الانتظار واضاعــة الوقت كانت السيدة تقبض على ساعده وترجو منه بتمليق

كثير ان يصبر ولهذا مع انه جار لها غريب لم يكلمها في حياته ولا راى لها وجها قبل اليوم فقد طلبت اليه ان يمد يده اليها بمساعدة فساعدها٠

ذهل فواد ذهولا لا مزيد عليه من هذا الامر ولما سال المخبر اذا كان يعلم الى اين نقلت تلك العائلة اجابه نفيا ولما اكثرعليه الاسئلة منها اذا كان يعرف السائق او محل عربات النقل واذا كان يعرف احدا يعرف عنهم شيئا اجابه بلا وسكر الباب وعاد الى بيته٠

بقي فواد تلك الليلة كلها يسال البوليس وكل من كان يراه في طريقه فلم يستهد الى احد يدله على منزل حبيبته الجديد٠

وقد ظل طيلة اسابيع يحاول ان يعرف هذا الامر فلم ينجح حتى قطع امله من النجاح وقرر في عقله ان الخاتم كان اصل هذه العلة٠

بعد هذه الحادثة صار فواد لا يأبه بالبنات الاجنبيات وعندما كان يجلس في محضر كان يصب من فيه حمما على خيانة بنات الجنس الغريب فكان يدعم قوله بالبراهين الواقعية بانهن يصاحبن الشاب من اجل ماله وانهن لايعرفن معنى للحب٠ ولما تناظر مع سامع مهذب رد عليه بان اميركا مخلط للامم العديدة وان السوري لا يتعرف بالقوم

الكبار الا نادرا فاذا عاشر بنتا فانه يكون قد علق بها في مرقص ام في مكان بالصدفة اقتنع بكلامــه وزادعلى قوله با نه هو نفسه وقع بمثل هذا وان قبلة بعد ثلاث سنوات كلفته اخر الدفعات ثما ني مئة ريال٠

خنفشار في اميركا

خنفشار في اميركا

البواخر التي تقطع الاتلانتيك انابيب تصب الخلائق من العالم القديم المكتظ بالبشر الى العالم الجديد المفتوح لاجيال ليتنفس فيه الانام بملء رئاتهم في فضاء واسع يكتنف الملايين من القادمين.

هذه الانابيب تروح وتجي بين شواطئ اميركا وشواطي اوروبا ناقلة على متونها الوف العمال والطالبين العمل في ميدان الاعمال — اميركا.

يصل المهاجر الى اميركا فيصمت صمتة الذهول في عظمة هذه البلاد ويعقد لسانه شغل فكره وجنانه بالتامل بما وصلت اليه فكرة الانسان المتمدن في فنه وصناعته وعلمه. يتامل مثلا في ناطحات السحاب فيعد طبقاتها واحدة واحدة فاذا وصل الى رقم الخمسين بعد ان تكون عروق رقبته تكاد تتصلب يهز راسه عجبا ويتابع مسيره متلفتا خطوة فاخرى ليملاء ناظريه بمدهشات البناء .

ياخذه احد معارفه من نيويورك الى بروكلن بقطار النفق وعندما يصل به الى منتصف الطريق يخبره بان القطار سائر بهما تحت لجات البحر فيثب قلبه وجلا ودهشة وتتفرع افكاره الى فروع لا تلتئم وهو خاشع امام العظمة البشرية

التي خولته الظروف ان يدخل الى قلبها·

يقف فيه احد اصدقائه عند مفرق الطرق فيرى امامه الى مدى بعيد خطوط السيارات تتحرك شمالا ويمينا وغربا وشرقا كانها فيالق لا اول لها ولا اخر والوف العابرين من هنا الجانب الى ذاك والقاطعين من هنا الى ذاك بكل نظام وانتباه فيخيل له انه في جنة من جنات الله·

كل هذا والمهاجر القريب العهد بوصوله الى اميركا يبقى مدهوشا يتكلم فكره وقلبه بعجائب الاختراع واما لسانه فيبقى جامدا لا يستطيع ان يتحرك· وما عسى المهاجر الضعيف ان ينطق فمه امام ما يشاهده بام العين من عظمة العالم الجديد وضخامته؟

ولكن هذه العقلة لا تطول وذلك المهاجر الصامت بالامس يصاب برد فعل فينقلب الى متكلم كثير الكلام· لان زمن الذهول قد مر وجاء زمن اصبح فيه المهاجر يتطلع الى مرامي العظمة كانه راء امام عينيه التنور عند مدخل داره في القرية او كانه اذا تطلع الى بناية وولورث ذات الطباق الثمانية والخمسين يشاهد كوخه في الكرم المؤلف من اربع قوائم شجرية بحيطان من قش· واذا ركب قطار النفق تحت البحر لا ياخذه العجب كالاول كانما هو راكب حماره تشارك رجلاه قوائم ذلك الحمار

بالسحب على وجه الارض٠

اخبرني صديق ان اخاه ظل اسبوعا لا يحير كلاما وقد خاف ان يكون قد اصيب ببكمة بادىء ذي بدء ولكنه ما انتهى الاسبوع حتى صار ذلك الاخرس خطيبا من الطبقة الاولى اذا جلس في حضرة كائن من كان يتناول الحديث من الالف الى الياء فيخلط عباسا على دباس واذا نهاه ناه لا يبالي به ولا بنهيه فهو الضليع في كل فن وعلم وعمل بعد ان كان يمشي على سطح الصبوبي فيتامل كيف جعلوه من قطع زجاج٠ وقد صار كل صعب عنده من اهون الامور وله على ذلك تعاليل هو ناسج بردها وحده لا شريك له من ذلك انه مرة كان جمهور في سهرة موضوعهم جسر بروكلن عندما كانت بلدية نيويورك مهتمة بمد جسر مانهتن اما هو فتناول الموضوع وعبثا كان يغمزه اخوه ان يختصر الحديث وان يعطي فرصة لغيره بالكلام بل تابع تعاليله حتى انتهت السهرة وقد ابان للقوم ان لا حاجة الى العجب في بناء الجسور العظيمة فان امرها بسيط جدا لان الاساس يبنى على الفلين اذ توضع صفائحه على وجه الماء ويبنى فوقها فترسب رويدا رويدا حتى تصل القعر٠

قال محدثي ولا اعلم من اين جاء اخوه بمثل ذلك التعليل ولكنه بالرغم من انه يجهل حتى القراءة والكتابة يتجراء

على الخوض في جسام الامور فيهون عنده جسر بروكلن وما نهتن وغيرهما ٠

عرفت سعد قمر في احدى مدائن هذه الولايات وهو كهل عتيق هاجر الى اميركا عن طريق مصر فمال لسانه الى لغة الفراعنة وظل في اميركا عشرين سنة وهو يتكلم بلغة محمد عبده واحمد شوقي وحافظ ابراهيم٠

وسعد قمر عانس لا يعرف الالف من الباء ولكنه ذو لسان ذي حركة دائمة لا توقفه الا المنية ولا ادري اذا كانت المنية اوقفته فقد مات ووضع في قبره وحجبته عني ظلمات الابدية ولهذا لا اجزم بالامر٠

كان المرحوم اذا راى حلقة مهما يكن نوعها ومن اي الناس كان اعضاؤها يجلس الى ناحية قريبة فيعطي اذنه اولا الى حديثهم حتى يتمكن من جذب طرف من حديثهم اليه فيستلمه ويبدا ولا ينتهي حتى ينتهي الاجتماع ويتفرق الاحباب٠ وقد صار معروفا في التدخل بكل موضوع فهو الطبيب وهو الفيلسوف وهو التاجر وهو كل شيء بحديثه ولكنه لا يدرك من هو في عالم الوجود ومات ولا يعلم من اين والى اين ولماذا وجد على سطح الغبراء ٠

والمرحوم سعد كان يحب اميركا لانها كما سمعته مرة يقول تفتح قلب الاعمى ففي بلادنا الافندي والبك

والمطران والخوري والاستاذ لا يعطون دورا لمثله بالكلام واما هنا في اميركا فكل انسان حر بما يشاء ان يتكلم.

وكان القوم في تلك المدينة قد عرفوا طبيعة المرحوم سعد فاستانسوا باحاديثه وصاروا يرون بها تسلية ولذة بما يعلل به ويبرهن ويسند اليه بصور مضحكة «فيقرقون» عليه ويحمسونه حتى يغتاظ وعند هذا تبدا تسليتهم.

جمعتني الصدف مرة في حلقة من هذا النوع في ذلك البلد ولما شاهده احدهم قادما من بعيد صاح بنا قائلا: ها هو سعد قادم فافتحوا موضوعا ليستلمه ويبسطنا قليلا من الوقت.

وكان الجميع يدخنون السكاير فقال احدهم ان الذي اكتشف الدخان هو اميركي فان اميركا ام الدخان.

(وعندها دخل سعد فحيى وجلس وقد سمع اخر جملة من المتكلم: اميركا ام الدخان)

وبعد ان حيى وجلس قال: بماذا تتحدثون اتتكلمون عن الدخان؟ الدخان مثل البخار يصعد من الماء اذا وضع فوق النار.

فاجابه ذلك الذي قال العبارة: لا لا. نحن لسنا بموضوع اصل الدخان فاكفنا شر فلسفتك ولكنا اختلفنا على كون الدخان الذي ندخنه من السكاير او بعبارة اخرى السكاير

نفسها او التبغ اكتشفه اميركاني. فما رايك؟
فاجاب:الدخان؟ الدخان عربي اكتشفه ملك العرب منذ الوف الاجيال

(وكان صاحبنا المرحوم يرى في اعلانات السكاير صور اعراب واتراك وقد علق براسه ان البدو يكثرون من التدخين وان الاركيلة عربية محضة فلهذا حفر في دماغه ان الدخان عربي على الاطلاق)

لا حاجة الى اعادة قصة الخنفشار الشهيرة وما كان لذلك المدعي معرفة كل شيء فانها معروفة لدى القاصي والداني وقد ذكرتها لان قصتها مشابهة قصة هذا المرحوم بل الله ثراه.

اعتاد المرحوم ان يسند تعاليله الى براهين وتواريخ توحى اليه في اللحظة ولهذا عكف على كلامه بقوله:

كان لذلك الملك ابنة وحيدة يحبها حتى العبادة ولا يرضى ان يبيع شعرة من شعر راسها بكل ممالك العالم فذات يوم دخل على غرفتها فوجدها دائخة والدخان يخرج من فمها فصاح باسمها واسمها ..... الله يلعن الشيطان كان اسمها على راس لساني ... اسمها .... اسمها .اسمعوا حتى اتذكر ... اسمها ....

ولا اعلم لماذا دقر عن هذا الاسم مع انه يستطيع ان

يفبرك مجلدات ولكن لكي يكون للحادثة وجه من المجون عندنا الهمه الله ان يدقق حتى يكتشف اسمها

وانتظرنا بفارغ صبر ان نحصل على اسمها ليمشي في قصته لنرى الى اين يوصلنا حتى مضى نحو نصف ساعة وهو يفرك جبينه ويلعن الشيطان كيف انه نسي اسمها وقد كان على راس لسانه ولم يبلعه او يبصقه ولا هو موجود في مكانه وكيف طار لا احد يعلم.

اخيرا وانا كلي شوق الى استماع الحادثة حدثتني نفسي ان اقذف كلمة باسم لعله ياخذها ويريحنا من حزره وانتظارنا فقلت له: اسمها يا عم دخانة.

فابرقت اسرته ايما ابراق وخبط برجله على الارض وصاح دخانة اسمها دخانة.

اما قصته فقد انتهت والناس يضحكون ولكني انا قد خفت ان يكون قد صدق ان اسم ابنة الملك الذي قص علينا شيئا من تاريخه دخانة ولهذا بعدما تفرقت الحلقة جلست بجانبه وهمست في اذنه:

ــ ارايت كيف خلصتك من تحزير نفسك واعطيتك اسما مختلقا لابنة الملك؟

ــ اسما مختلقا او تريد ان تضحك علي ؟ اانا ولد ؟او لا اعرف اسمها وقد كان على راس لساني ؟

ـ ولكن اقسم لك بالله ان كلمة «دخانة» جاءت مني عفوا وقد شلفتها شلفـــة لعلها تلصق بحائط دماغك وقد لصقت وخلصنا من الانتظار.

فما كان منه الا انه اداز لي ظهره وهو يشرق دخان النارجيلة ضاحكا بملء فيه من محاولتي اقناعه بأن مسالة «دخانة» رمية طائشة لا محل لها من الصدق وقد ردد ثانية قوله: يريد ان يضحك علي انا لو كنت متزوجا لكان اصغر اولادي اكبر منه!

وقد بلغني ان سعد قمر توفي منذ سنة واظنــــه وهو في ضريحه لا يزال يعتقد ان اسم ابنة الملك العربي دخانة وانها هي التي اكتشفت الدخان حتى سمي باسمهـــا قبل ان اكتشفت اميركا بالوف السنين.

وانا حزين جدا جدا اني لم اقدر في حياتي ان اقنعه بان تلك الكلمة التي حفرت على صفيحة مخيلته انما هي تلفيق واخاف انه لا يزال في سكينـــة القبور يعكر صفاء تلك السكينة الرهيبة بترديد تلك الكلمة الملفقة.

لنا علم وللجهال مال .

لنا علم وللجهال مال

مسكين جورج بحري ينقصه امر وهذا ما يجعله جزينا كل ايام حياته•

هكذا يسمعني دائما كلما قابلته يتنهد ويخبرني ان عنده اراء سديدة ولكنه يجهل قواعد اللغة العربية•

وجورج بحري تاجر من التجار الكبار بين السوريين ومعدود بين اهل الثروة والمقام التجاري ولكنه بعد ان حصل على ثروته ومقامه وقد كان من اوائل المهاجرين واهان نفسه في الاعمال الاولى حتى صعد باجتهاده الى راس السلم التجاري وعندئذ تلفت فراى نفسه مفردا لا ينقصه شيء• بالغنى هو من اربابها• بالوجاهة هو من اعيانها• بالزعامة هو من اركانها• لا ينقصه الا شيء واحد وهو قواعد اللغة العربية ليخطب في المجالس وينشيء المقالات على صفحات الجرائد•

وهذا الرجل صورة من صور السوريين العتق الذين يحبون الظهور بما ليس فيهم وتمني الامور البعيدة عنهم فلما كان فقيرا كان يتمنى لو يصير غنيا حتى اذا صار غنيا اصبح يتمنى لو كان وجيها فدخل الجمعيات وتبرع هنا وهناك وعكف عليه الناس لمقامه المالي حتى اذا صار

كبيرا في عيون فئة من الناس تمنى لو انه خطيب يقف على المنابر فيجتذب قلوب السامعين· وهو يظنّ انه لا ينقصه من الخطابة والكتابة الا قواعد اللغة وقد جاء الى اميركا ولدا من مزرعة ليس فيها مدرسة تعلمه·

مسكين جورج بحري انه لمن المحزنات ان لا يكون ملما بقواعد اللغة العربية ليلبس اراءه الجميلة اثوابا لغوية بديعة يفيد بها المجموع·

ولهذا الرجل اطوار غريبة خبرتهـا بنفسي فانه يحب المجاملة والمسايرة ومرافقة المارين فيوصلهم الى الاماكن التي يقصدونها فيودعهم ويعود وقد حدثت لي معه حوادث عديدة نفرتني قليلا عنه مع اني لا اعرفه كثيرا وقد تسلط على مرافقتي غصبا عني·

مرات عديدة وانا سائر في الشوارع ارفع راسي فاراه قادما نحوي من اول الشارع فلا تقع عيني على عينه حتى ارى يده مرفوعة حتى اذا وصلنا لمقابلة بعضنا بعضا دب يده على يدي فهزها هزة هائلة· ولهذا صرت اذا رايته من بعيد اخفض بصري الى الارض كاني لم اره وهو اكبر من الجاموس فاحول مسيري الى الجانب الثـاني من الشارع ولكن هذا لم يكن يفيد فان حضرته مرة وقعت عيني على عينه من بعيد فرايته رافعا يده اذ لمحني فلذت

بالحيلة ومالت قدماي الى الجانب الثاني من الشارع وتابعت الخطو وعيني لا تنظر الى ذلك الجانب ولكن شد ما كان دهشي عندما رايت رجلا كبيرا يفرق جموع الناس بالعرض رافعا يده ليخبطها على يدي فخبطها ووصلت طرقتها عنان السماء ولا يعلم الا انا والله كم تالمت من تلك الهزة والضربة الا اني لم اشاء الوقوف لئلا يكثر ازدحام الناس على مشاهدة ادوار الرواية التي كنت واياه بطليها ولهذا سحبته بيدي من يده وتابعنا المسير اما هو فوضع يسراه ايضا على كتفي وابقى يمناه بيمناي ومشينا. هو يتكلم وانا العن الحظ. وكنت كلما اردت الانفصال عنه يرجو مني ان ابقى معه لنقطع الشارع الفلاني وهو يخطب في اذني تارة بالتجارة واخرى بالصحافة ثم يبدا بالعلم فينتهي بالسياسة الى ما هنالك من الفنون المخلوطة في دماغه. وكالعادة كما تقدم عندما فرغ من كلامه الطويل سالني رايي قائلا: « الا ترى ان عندي اراء؟» فجاملته بقولي «نعم اراء واي اراء!»

فابرقت اسرته لجوابي الحسن ولكنه عاد فقال ولكنني اتاسف يا عزيزي انني اجهل اللغة العربية فلو كنت متعلما لخطبت خطبا نافعة.

فقلت له: ولكن اللغة ليست بذات بال اذا كان عندك فكر

قال بلى ولكن كيف استطيع ان احوك ارائي؟

فقلت له انه يستطيع ان يطالع الجرائد والمجـلات والكتب فيكتسب منها الاصطلاحات العربية فاذا استعملها بكلامه لاينقصه شيء البتة لان قواعد اللغة ليست بلازمة ولا هي بضرورية لمن كان عنده اراء كارائه.

فاخبرني اذ ذاك انه كثير المطالعة وانه يقراء كل كتاب وكل جريدة ومجلة تقع تحت نظره وانه صار خزانـة للاصطلاحات العربية.

وفيما نحن بهذا الحال اذ التقينا بشاب يعرفه جورج فصافحه مصافحة شبيهة بمصافحته لي ثم عرفني عليه واخبرني انه قد تكلل على عروس من ثلاثة ايام. ثم خص العريس بكلامه وانا سامع فقال:

«اهنيك بالعرس والعروس واتمنى لك ولها الافراح والاتراح»

سمعت انا ما قال جورج وكدت ارسل عاصفة من الضحك، غير اني كظمت لاسمع جواب العريس.

اما العريس فاجاب باللغة الانكليزية شاكرا عواطف المستر جورج وافترقنا عنه. عندئذ تبسمت وتطلعت بجورج فرايته مبتسما ايضا طافح الوجه فقال لي :

«الا ترى اني استطيع تركيب الكلام الفصيح ؟»

فاجبته نعم وقد شاقني السجع بكلامك فاخبرني اذ ذاك انه في ذلك النهار وقعت عينه في جريدة على «الافراح والاتراح» فاحبها وحفظها في فكره للاستعمال وقد سر جدا للظرف الذي جعله يلتقي بعريس ليقولها له ظانا ان الاتراح مرادفة للافراح لانه فهم هذه ولم يفهم تلك٠

وانقضى ذلك النهار وانا كالماخوذ فكلما فطنت لما حدث امامي اضحك لنفسي كالماخوذ ولا ازال كذلك الى هذا اليوم٠

والمستر جورج يحفظ كثيرا من الامثال التي يدعم بها احاديثه وكثيرا ما يعزوحوادث خطيرة لنفسه كانها حدثت له وهي في بطون التاريخ القديمة يسمع بها فتلذ له فاذا جاءها دور يناسب المقام الذي يكون فيه يسرد قصتها جاعلا نفسه بطلها٠

وهو يعتقد بذكاء السوري المفرط ودائما يتاسف لكون السوريين غير متعلمين والا لفاقوا على كل الامم بذكائهم ومن امثلته على ذلك انه استطاع ان ينجح في بلاد غريبة كان يجهل لغة اهلها وقد جاء الى اميركا بساعده وحده فداس الصعوبات الكثيرة وتغلب على المعاكسات فنال حظا وافرا من الثروة٠ اما تاسفه الشديد فلانه دخل ميدان اميركا خلوا من العلم فلو انه كان عالما لكانت ثروتــه

اضعاف ما هي عليه اليوم.

وكثيرا ما ينظر الى المتعلمين من السوريين فيرى معظمهم معدمين فيهز راسه اسفا لما ضيعوه من الحظوظ مع انهم حاصلون على الاساس الذي يستطيعون ان يبنوا عليه التقدم العظيم في عالم التجارة.

قال :ياتي السوري المتعلم الى اميركا فيتافف من كل مهنة. لا يرضي يبيع بالكشة ولا بالجزدان واذا اشتغل في محل لا يكاد مقعده يسخن تحته حتى يترك المحل هازئا باصحابه.

وقد حدث بهذا الرجل حادث ادى الى نفوره من كاتب في محله وذلك انه جاء يوما الى الكاتب فنصح له ان يهين نفسه اذا كان يريد الصعود الى قمة النجاح واعطاه مثالا على ذلك نفسه فقال له انه لو لم يحمل الكشة سنوات على ظهره كالحمار ويقطع الاميال كل يوم مشيا على قدميه لما حصل على مركزه التجاري ولما كان يشتغل في محله كثير من الناس المتعلمين كالكاتب المنصوح له. ثم زاد على ذلك انه لو كان مثل الكاتب متعلما وجاء الى اميركا لكان بلا شك بمصاف اغنياء شارع «وول» . اما الكاتب وقد كان خريج كلية يشتغل عند المستر جورج ليرى له بابا لمستقبله ولم يكن يرى ذلك الباب مفتوحا في خلال

عشر سنوات· فاجابه:

«ولكن اقسم لك يا مستر جورج انه لو جئت حضرتك الى اميركا متعلما مثلي لكنت كما انا تشتغل لغيرك من الذين جاءوا الى اميركا لا علم ولا معرفة فلم يبالوا بحمل الاثقال على ظهورهم وصعدوا سلم النجاح درجة درجة حتى وصلواالى اوج مقامهم· اولئك لو كانوا متعلمين لاكتفوا بعلمهم وانفوا من الاشغال الاولية التي لا يانف منهامن كان مثل حضرته· وقد قال له ايضا انه يجب ان يشكر الله لكونه ليس متعلما والا لما كان غنيا كما هو اليوم·

وقد انتهت تلك المحادثة عن طرد المستر جورج لكاتبه لان هذا قال له اخيرا هذه سنة الله في خلقه ـ لنا علم وللجهال مال·

عارف الجميع

عارف الجميع

لعزيز سيار ميزة عن باقي البشر فهو يعرف كل من يراه فاذا راك حياك وسلم عليك وسالك عن صحة افراد العائلة واحكى لك قصة عن المرحوم جدك الذي تعرف عليه في الشام مثلا وان المرحوم اباك كان من اعز اصدقائه

عزيز سيار هذا مخلوق عجيب وبالاخص بتواريخه التي يفصلها عن حياة هذا وحياة ذاك وكثيرون لاول وهلة ينصاعون الى حديثه لتصديقهم اقواله عن معرفته بالمرحوم فلان وصداقته القديمة لهذا ولذاك ومواصلته فلانا واخر

وله عادة عرفت به وعرف بها وهي انه اذا التقى بانسان فبعد ان يحييه ويسلم عليه ويسأله عن صحة افراد العائلة ويقص له واقعة حال مع احد المرحومين يشبك ساعده بساعد الملتقى به ويسير الاثنان على الطريق حتى يتحنن الله ويمر انسان اخر فيودع الاول ويمسك بالثاني بعد ان يقول للاول «البقية تاتي» ان شاء الله في المشوار الثاني اكمل لك القصة. ثم يبدا بذات الدور مع الثاني وهكذا يظل يودع هذا ويلاقي ذاك حتى ينتهي النهار

الا ان كثيرين من الذين درسوا اخلاق عزيز عرفوا مبلغ الصحة في احاديثه فصاروا يتراهنون على ما اذا كان يعرف

شخصا ما او لا يعرفه فيقصدونه وغالبا كان المراهنون يخسرون لان للرجل ولعا شديدا بمعرفة العيال والاسماء ويكفي لذلك ان يذكر عن المسوءول عنه لمحة صغيرة كان يقول هو فلان من البلد الفلاني من العائلة الفلانية تعرفت بابن خال كنة عمته في عام كذا وكذا الخ

حدث يوما ان عزيزا كان في احد المحال السوريةفي يوم عاصفة ثلجية اوقفت الاعمال وكان عدد من اصحاب المحل وزبائنهم مجتمعين داخل المحل يستدفئون وفي جملتهم كان عزيز السيار وصدف ان العمل الذي كانوا يعملونه قد انتهى ولم يشا احدهم الخروجوفيما هم كذلك اذ دفع الباب ولد وبيده اعداد جريدة فطرح احدها الى داخلالمحل وقفل راجعا فتناول احد الشركاء العدد واخذ يقلب بصفحاته فصاح به عزيز «هات لنا اخبار الجريدة لنتسلى بها فلا عمل لنا سوى الانتظار حتى تهدا العاصفة فنخرج»

فناوله التاجر العدد وقال له «اقرا لنا مقالة خليللقمان في الصفحة الرابعة»

وما لفظ هذا الاسم حتى اهتز كل من كان موجودا وصاح الجميع «اي والله اسمعونا ما يقولهذا الكاتبالعظيم فان كلامه لسحر يدخل القلوب ويطوي منازل النفوسطيا»

اما عزيز فقد ابتسم لدى سماعه اسم الكاتب وهز راسه استخفافا برغبة الجمهور ثم قال «يحرق قلب خليل ما اكتبه والله اني اتعجب كيف يستطيع هذا الشاب ان يكتب فقد كنت معه البارحة طول النهار وبعض الليل وكيف تمكن من كتابة هذه المقالة لعدد اليوم لا اعلم»

عندئذ ساله احدهم «او انت تعرف خليل لقمان اوهو في هذه المدينة ?»

» اعرف خليل لقمان ? اوهو في هذه المدينة? وكيف لا اعرفه وهو من اعز اصدقائي وقد جاء نهار امس من بعلبك خصيصا لنجتمع سوية · خليل لقمان وعزيز السيار اثنان في واحد»

فساله واحد من الحاضرين وقال «بالله صف لنا خليل لقمان فاني دائما اتمنى واتحسر على روءية رسم له واعد الاجتماع به من اماني حياتي فوالله انه على لساني وفي قلبي كيفما توجهت »

هنا اخذ عزيز سيار يصف للقوم خليل لقمان فقال انه شاب لا يتجاوز الخامسة والعشرين وان الذين يطالعون كتاباته يتوهمون انه فوق الخمسين ولكن حقيقة عمره خمسة وعشرون سنة شاب مربوع القامة ابيض اللون جميل المحيا عالي الجبين اسود العينين يستحي من خياله مملوء عواطف يطالع

الناظر اليه بوجهه تينك الرقة والانسانية اللتين يقرأهما في خلال سطوره دمث الخلق يشرب كلامه كالخمر ولا الطف ولا اجمل من شاب كهذا في العالم »

قال هذه الاوصاف والسامعون يترنمون لذكر خليل لقمان لما له في قلوبهم من المنزلة السامية

جرى كل هذا واحد الشركاء في المحل واقف الى منضدته واضع راسه على كفه وعيناه تنظران عزيز السيار يحيط القوم وصفا بخليل لقمان وكان التاجر يبتسم ابتسامة لها معنى يعرفه الخبيرون بامور الفراسة. ولما انتهى هذا الدور وخرج عزيز من المحل واكثر الذين كانوا موجودين التفت ذلك التاجر الى احد شركائه وقال له «اتراهن ان عزيزا لم يجتمع بخليل لقمان ولا راى له وجها؟»

فاجابه الشريك الاخر وقال «لا ياشريك لا تغلطان عزيزا يعرف كل مخلوق وكفى برهانا انه ذكر اوصافه والا فمن اين اتى بها ؟

فقال التاجر لشريكه

لا تجادلني قلبي يحدثني ان عزيز السيار لا يعرف خليل لقمان ولم يجتمع به في حياته اتراهن على ذلك ؟»

فاجابه شريكه

وكيف يمكنك ان تعرف حقيقة الامر؟

ـ الى صاحب الجريدة التي يكتب فيها خليل وهناك نسالهعنه لعلنا نهتدي الى حقيقة الامر

وذهب الاثنان الشريكان الى ادارة الجريدة في الحال فاجتمعا بصاحبها الذي احسن استقبالهما وادخلهما الى غرفة التحرير وبعد ان جلس الثلاثة فتح التاجر فمه بالكلام فقال «جئنا اليك يا افندي صدفة دون ميعاد فقد بلغنا ان خليل لقمان موجود في نيويورك فاحببنا زيارة الادارة للتعرف عليه واداء امتناننا لكتابته على صفحات جريدتكم الزاهرة تشجيعا له على الاخذ بناصر جريدتكم المحبوبة»

فاجاب الصحافي وقال

«اشكركم من كل قلبي ولكن يا للاسف ان خليل لقمان عاد الى بفلوصباح اليوم وقد جاء نيويورك في ليلة واحدة ولم يقم غيرها خوفا من مقابلة الناس ولكني سا كتب اليه واعلمه بتشريفكم الادارة للسلام عليه ولكن من اين عرفتم انه كان في نيويورك ولا اظن ان احدا عرف بقدومه الا انا؟»

فابتسم الشريك المراهن بجانب عزيز وقال في سره لقد ربحنا الرهن لان خليلا كان في نيويورك حسب رواية عزيز

اما الشريك الثاني فقد شعر ببعض هذا ولكنه لم يشا ان يسلم بل اخبر الصحافي بان عزيز السيار اخبره عن قدوم

خليل٠ اما الصحافي فعندما وقع في مسمعه اسم عزيزالسيار ضحك ضحكة قوية وقال «الانعرفتسبب قدومكما فيظهر أن عزيزا لا يزال متاثرا من حادثة امس فارسلكما لتعتذرا امام خليل عنحادثته المشومة ٠ ولكن لا باس ان اخبر كما ان خليلا لم يهمه الامر بل كان الفصل الذي مثله عزيز امامه البارحة فكاهة عظيمة لا يزال حتى هذه اللحظةيضحك منها»

فاجاب التاجر «ولكننا لم نات لهذا الغرض بل جئنا والكلام بسرك لنعرف من اين هذه الصداقة الجامعةبين عزيز السيار وخليل لقمان؟»

عندئذ بدا الصحافي يخبر الزائرين تاريخ تلك الصداقة وهو يقول كلمة ويضحك خمس دقائق اما التاريخ فكما ياتي

قال الصحافي

«هبط علي خليل لقمان هبوط الملاك على انسان في حين لم اكن على ميعاد واول ما وصل سلم علي واخبرني انه قادم لغرض واحد وهو الاجتماع باستاذ في جامعة نيويورك ولما انهى غرضه زار الادارة ليتعرف بي واوصاني مشددا ان لا اذكر لاحد الناس عن قدومه وان لا اعرفه البتة بانسان٠ وقد شاء أن يودعني ليوءوب الى بفلو على قطار الليل ولكني بعد الحاحي الشديد قبل ان يكون ضيفي

تلك الليلة وحدها حيث اصرف السهرة معه ولا ثالث بيننا فاقفلت الادارة وذهبت به الى محطة الطوف وفيما نحن جالسان اذا بعزيز السيار قد جلس حيالي وسالني عن صحة افراد العائلة في الوطن واذا كنت اسمع منهم كل بوسطة الى ما تعرفانه من سوءالاته الكثيرة ثم استاذن مني عددا من جريدتي كان بيدي واول ما وقع نظره على مقالة صغيرة لخليل لقمان قال لي «اتدري اني لا اقرا جريدتك الا لان خليلا يكتب فيها وان الواجب علي ان احتفظ به لئلا تنقل كتاباته الى جريدة اخرى. ثم سالني عما اذا كنت اعرفه شخصيا فاجبته نفيا لارى ما وراء ذلك فقال لي ان الاحسن ان لا اجتمع به فاذا رايته سقط من عيني لان له خلقا اعوذ بالله ـ هكذا قال ـ له شعر مسترسل على كتفيه كالدراويش وله انف كخرطوم الفيل واذنان كبيرتان تعد الواحدة بثلاث اذان وعينان صغيرتان كعيني الخلد والخلاصة له خلقة مخيفة ثم قال مسكين خليل لقمان على سحنته ولكن له قلما ومواهب عقلية سامية والاحسن للناس ان لا يتعرفوا به .

وما وصل الى هذا الحد حتى جاء الطوف فنهضنا واسرعنا مع الركاب للنزول فيه وقد ظل عزيز ملاصقا اياي من عن يساري وخليل لقمان على يميني لا يفتح فاه بكلمة ولكنه كان يبتسم وكان الاول كل الطريق يصف لي خليل

كما يعرفه واخبرني عن حوادث جرت له معه في بفلو وفي نيويورك وانه صديق له ولعائلته من زمان حتى وصلنا الى الجانب الثاني من النهر فخرجنا مع الركاب الى ارض بروكلن وهناك وقفت لاودع عزيزا لياخذ طريقه وانا مع رفيقي ناخذ طريقنا وقد شاءت العناية ان لا يذهب في سبيله حتى يكمل الفصل فبعد ان ودعني هزا باليد قال لي ولماذا لم تعرفني بصاحبك فقدظننته بادىء الامر غريبا عنك ؟ فقمت اذ ذاك بواجب التعريف بين الاثنين فقلت،

الحق علي ياصديقي في هذا التقصير ولكنك ياعزيزلم تعطني سبيلا لاعرفك بصديق كلينا خليل لقمان · وفي تلك اللحظة لم يعد عزيز سيار عزيز السيار فقد امتقع لونه كانه ابدل خلقا ولكن خليلا اقترب منه فامسك بيده وقال له انه عرف منذ البداءة بحديثه انه كان غلطانا وقد اكدتماما انه — اي عزيز— كان يصف شخصا اخر ظنه خليل لقمان

اما عزيز فلم يقل كلمة ولكنه سحب يده ومضى في سبيله»

عند هذا توقف الصحافي عن الكلام بضع ثواني ثم استانف الحديث فقال «وقد بتنا ليلة امس وانا اجرب ان اسلي خاطر خليل لاذهب عنه تاثره الشديد على حالة عزيز في ساعة تعرف به ولكنه لم يطق نوما وكان كل وهلة

واخرى يسمعني توبيخه اللطيف لقساوتي الشديدة التي استعملتها معه وقد قال لي انه لو عرف ان المسالة ستنتهي كما انتهت لما صبر على سماعه حديث عزيز ولكان قطع حديثه وعرف نفسه به خوفا من التهور الذي تم»

وخرج الشريكان من ادارة الصحافي ولا يزالان حتى اليوم وقد مضى على الحادثة عشر سنوات يتنازعان على الرهن فالاول يقول انه ربح الرهن لان عزيزا لم يعرف خليلا ولا اجتمع به كما ادعى والثاني يقول انه هو الرابح لانه ظهر ان عزيزا اجتمع بخليل وكفى

اقصر الطرق

اقصر الطرق

لغط الناس ثلاثة اسابيع بحادثة خليل عساف وهي انه خطف ابنة مراد البسيط وقد شغل اهل المخطوفة اسلاك التلغراف والتلفون كل الاسبوع الاول مفتشين على ابنتهم فلم يفلحوا بخبر عنها وعن الذي خطفها

بعد الاسبوع الاول صار اقرباء مراد البسيط يلومونه لعدم سماحه لابنته ماري بان تتزوج بخليل تزوجا عاديا فلو انه رضي بذلك لما عرضها للانقياد الى ارادة حبيبها والهرب من بيت ابيها مما جعل اسم العائلة مضغة في افواه الناس. اما مراد فكان يتلقى توابيخ ذويه بصبر عجيب فعبثا حاول اقناعهم بانه لم يصد خليلا البتة وانه كان يميل الى مصاهرته ولم يظهر له عدم رغبة فيه ولا مرة وجلما قال له اخر شيء ان يقتصد بمصروفه وان يعمل باجتهاد كلي ويصبر على حاله في الاقل سنة او سنتين لبينما يتوفر معه على الاقل مبلغ من المال لنفقات العرس ولو انه عرف ان الاخرة ستكون على هذه الصورة لرضي به صهرا ولم يعرضه لخطف ابنته ولكن ما العمل؟

بعد الاسابيع الثلاثة عاد خليل الى نيويورك تصحبه عروسه التي زفت اليه في احدى قرى بنسلفانيا ولما وصلا

الى المدينة اتفقا على النزول في احد نزل نيويورك لان العروس خافت ان تظهر امام ابيها وقد كسرت ارادته وخشيت من العواقب والعريس ايضا خاف التسرع بالظهور امام حميه وحسب ان اهل عروسه لا يزالون نارا تلتهب غيظا منه ومن زوجته

في ذلك اليوم اختلف العروسان على من يوصل الخبر الى اب العروس وانما كان اختلافا يتخلله الحب والدلال فان العروس رفضت بتاتا ان تذهب الى بيت ابيها ولم تعرف بعد اذا كان يرضى عنها ويصفح عما اتته مما اقامه واقعده وجعله يلزم البيت ثلاثة اسابيع والناس افواجا يأتون ويذهبون الى داره كأنه اصيب بفقد ابنته لا انه انعم عليها بزواجها . والعريس قال ان اباها ليس اباه فهو لا يهمه رضي او لم يرض فاذا كانت عروسه تلح بالصلح فالامر متعلق بها نفسها . واخيرا اتفقا على ان يلقيا القرعة على من يكون رسول البلاغ فوقعت القرعة اولا على العروس فلم تذعن واقترحت ان تثنى القرعة فرضي الزوج مضطرا ووقعت القرعة الثانية عليه فتردد اولا وحاول التملص من تلك المهمة الصعبة ولكن نظرات ماري قربته الى الحيلة فهب لساعته وتناول التلفون فطلب حماه مرادا وخاطبه قائلا

«انا خليل قد عدت الى نيويورك وعلمت انك ساخط

علي فعرفت اني مخطىء وقد قلت لماري ان تعود الى بيتك فلم تحفل بقولي واخيرا عملت ما يجب علي فها اني تارك لك ابنتك في نزل غراند فتعالوا خذوها وانا مسافر الى محل اقامة اخي في ولاية تكسس بقطار الساعة الثالثة بعد الظهر »

قال هذا وسكر التلفون ثم تطلع بماري تطلعة جد كسرت قلبها فارخت راسها على صدره وسالته والغصة ملء صدرها «اصحيح انك ستتركني يا خليل. رجلي ورجلك لا افارقك حتى الموت »

قالت هذا والدمعة قد قاربت الانحدار من عينها ولكن خليلا صد دموع امراته بضحكة طويلة اتبعها بقبلة قوية على عينها التي قاربت التدميع

ثم انتبه فجاة وقال «قربت الساعة فبعد قليل لا بد ان يحضر ابوك وجميع اهلك فماذا نعمل؟»

بعد تردد قليل اتفقا على ان يكملا الدور الذي رفع خليل الستار عنه فتم بينهما ان تتمسك باذياله بشدة عندما يسمع وقع خطوات اهلها قرب الباب وهكذا كان فلما دخل الاب ووراءه امراته وابنتهما الكبرى شاهد الجميع ابنتهم ممسكة بخليل وهي تهدده بقولها «لا يمكنك ان تخطو خطوة من هنا ما لم يات اهلي ويروك»

وكان ان مرادا سمع العبارة التي قالتها ابنته للذي خطفها فلم يقل شيئا البتة ولكنه اسرع خطاه الى محل الحادثة فجذب بابنته عن خليل ودفعها الى جانب وقال لها «ابعدي انت عنه» ثم امسك بيد خليل وخاطبه بصوت حاد متكسر بالغصات التي كانت قد انزعجت في طريق رئته الى حلقه «ماذا تريد ان تعمل الان. اما حياتك واما شرفي. عملت معنا هذا الفصل ومرادك الان ان تنهيه على حسابي انا ؟ ماهذا الامل منك يا خليل»

وكان ان امراة مراد قد اقتربت من خليل وبين عينيها سيف لامع من الغضب فابعدها زوجها واشار اليها ان تخفض صوتها لئلا ياتي سكان النزل ومعهم البوليس فتكون الضلالة الاخيرة شرا من الاولى

عندئذ نهض خليل ونظره الى الارض وقال. «لا تغضبوا ولا تحمقوا فانا ما قصدت ان اغضبكم فقد ظننت انكم تريدون ابنتكم فاخبرتكم اين تجدونها واما وانتم تريدونني معها فهذا كل ما كنت اشتهيه واتمناه»

ولم يخرج القوم من تلك الغرفة الا وتبدلت الحالة من سخط الى فرح وكل من الحزبين يظن نفسه الظافر على الاخر. وقد ذهب الجميع الى بيت مراد البسيط حيث اجتمع عدد من الاهل والمعارف وفي اليوم التالي ضجت السمعة

في المدينة ان مرادا رضي عن صهره وابنته وانهما اكتريا الطابق الاعلى في المنزل الذي يسكنه لتكون ماري قريبةمن بيت ابويها

خليل عساف كان مشغوفا بحب ماري البسيط وكان ابوها عارفا بذلك ولم يكن ما يجعله يميل عنه الا خلوه من المال ومعلوم ان الزواج يكلف نفقات مالية كثيرة ولهذا ابعد امله الى سنة او سنتين لعل في هذه المدة يقوى على توفير المبلغ الكافي • الا ان خليلا لم يرق له التاجيل وكذلك ماري ولكنهما كانا ايضا عارفين تمام العرف بالنفقات اللازمة واهمها ثمن الخاتم الماسي وبعد البحث مرارا بينهما في هذا الامر اقترحت ماري نفسها على حبيبها ان يهربا وينجوا من المصاريف فيحصلان على متمناهما دون كلفات لا معنى لها وهكذا فانهما هربا دون علم احدودون ان يعرفا تماما اذا كان الاب يمانع بتاتا عند الساعة الاخيرة

وعاش خليل وامراته عيشة هنيئة وقد نسي الناس كيف كان عرسهما وبعد سنتين جاء بكرهما فسمياه وليم وكان صورة بالجمال كانه هبة من ملائكة الله

اما احوال خليل بعد الزواج فصارت على جانب من التوفيق ولهذا اشترى بيتا جميلا لسكناه وجعل في بنصر امراته خاتما ثمنه الفا ريال وفي خزانتها ثياب فاخرة تحسدها

عليها كثيرات من العرائس

ذات ليلة كان حمو خليل زائرا في بيت ابنته ماري وكان وليم يدب على الارض عند قدمي جده فيستند على رجليه ويد واحدة من يديه وبالثانية يضرب قدم جده ضاحكا بملء شدقية الصغيرين فيرجع جده قدمه تظاهرا امام الطفل بالخوف من ضربه ثم يقدمها بسرعة ويعود فيسحبها وقد ظل يلاعب حفيده الملاك حتى افعم قلبه حبا فنشله عن الارض واقامه على صدره يقبله ويشمه والطفل يضحك ويملأ البيت سرورا والقلب ابتهاجا

ثم لاحت من الجد نظرة الى الخاتم في يد ابنته التي كانت تغامز طفلها ليلاعب جده وقلبها يرقص لكل حركة من حركاته فقال لها «اهذا هو الخاتم الذي اخبرتني عنه امك ارني اياه باقتراب»

فنزعت ماري خاتمها وقدمته الى ابيها فتامله دقيقة منحيا بيده الطفل قليلا وهو ينظر الى الخاتم بيده الثانية فتنهد وقال لاول مرة موجها الخطاب الجدي الى ابنته «يا ابنتي ما كان احلاك لو تصبرين الى هذا الحين فتتزوجين بخليل ونعمل لك عرسا ما صار مثله ولن يصير فيرى الناس هذا الخاتم باصبعك وانت عروس»

فاجابت ماري «يا ابي كل ظفر من اصابع وليم من

يديه ورجليه يسوى كل الماسات في العالم فلو صبرت الى اليوم لبينما يستطيع خليل ان يشتري لي هذا الخاتم لما كان في الوجود هذا الملاك»

وتطلع الجد الى الطفل ثانية فراد واضعا يده في فيه يعلكها وقد امحت من وجهه ابتسامته لميل جده عنه الى الخاتم فجذبه في الحال الى صدره وكاد يفترسه بقبلة من خده ولما انتهى منها عاد الطفل يضحك ضحكته العميقة ويحرك يديه ملاعبا جده

في تلك اللحظة انضمت ماري الى الطفل وجده ولكي تشترك بالدور الذي يمثلانه اعطت الخاتم الى وليم لعله يوءخذ بلمعان ماسته ولكنه عندما قبض عليه وراه رمى به الى الارض بعنف واستانف اللعب مع جده • فنظرت امه وابوها الى ما عمل الطفل ولما التقى ناظراهما قال لها ابوها «الحق معه»

المتشرعان

المتشرعان

يعرف كل من جبره غبريل وداود واصف بالمتشرع وكلاهما يجهلان القراءة والكتابة حتى بلغتهما العربية. الا ان اللقب الذي احرزاه هو نتيجة حوادث عديدة لهما بالمماحكة والمحاجة بل هو صفة لاخلاق الرجلين التي عرفها القوم فمنحوهما لقب متشرع وصار كل منهما معروفا بهذا اللقب

الاول جبره غبريل عامل في احد المصانع والاخر داود واصف وكيل على املاك يوءجر منها منازل لمواطنيه. والاول ساكن في احد المنازل التي يوءجرها الثاني وهناك كل البلاء لان هذه السكنى تجعل البطلين — بطلي الشريعة يلتقيان كل صباح ومساء كانهما جبلان وليس على طالب فرجة في مسارح الا ان يترصد اجتماع هذين المتشرعين فيشاهد منهما من الادوار التي يمثلانها ما يغنيه عن الف دور هزلي في الملاعب

ولقد اعتاد كل منهما مضادة الاخر حتى على الامور المرئية المحسوسة فاذا قال جبره بان الثلج ابيض يجيبه داود بان الثلج اسود ولكل منهما براهين وحجج واستنزالات علوية والهامات روحية ما انزل الله بها من سلطان

اعتاد الناس من جيران وغيرهم التجمهر حول هذين البطلين للتسلية واكثرهم يوقد النار بينهما ثم يقف الجميع ليروا كيف تتعالى شرارات المناظرة بينهما فيضحكــون ويتسلون

عندما يسمع في السوق صوت احد الاثنين اما جبره واما داود يتالب جماعة المتفرجين من هنا وهناك كان ذلك الصوت عندهم دقة الناقوس للمترقبين انفتـــاح ابــواب الكنيسة لكي يدخلوا للصلاة وهكذا الامر عندهم لدى سماعهم نبرة عالية من احد الاثنين اذ ذاك يوءلف القوم حلقة حولهما ويبدا الاثنان بتمثيل ادوارهما

اما اختلافاتهما فليست بذات بال عندهما فهي لا تشرق عليها شمس يوم ثان ولهذا فكلاهما معروف عند العامة بانهما كثيرا الغلبة انما طيبا القلب وانهما مع تصايحهما وتخالفهما بالراي واحيانا تقاتلهما ينسيان عندما يبرد غليلهما كل ما جرى بينهما كان المقدر ما كان

كان جبره صاعدا السلم ذات يوم الى بيته واذا بداود نازلا فسلما اولا حسب المعتاد كسلام المصـــارعين او المتلاكمين في المسارح وبعده يجـــيء دور الصراع او الملاكمة وقد يخطف الواحد منهما روح الثاني انما السلام لا بد منه اولا

بعد السلام قال داود

«يا جار وانا اليوم اتمشى امام البناية اذ سقط من عل لوح زجاج فقلت في نفسي اعوذ بالله من هذا النهار فان جارنا جبره سيقيم الارض ويقعدها ويهبط السماء ويدمر الفضاء على راسنا قبل ان يدفع ثمن لوح الزجاج المكسور في منزله . ولكن الحمد لله يا جار لم يكن اللوح المكسور من احدى نوافذكم بل من نافذة احد الجيران ولهذا مضت المسالة واسبل الله ستره»

قال داود هذا وجبره يهم بالمقاطعة ولكنه ضغط على عوامله الداخلية ليعلم جلية الخبر ولما انهى داود كلامه اجابه

«ولماذا ادفع ثمن لوح الزجاج وانا لست بكاسره?»

فرد عليه داود في الحال

«لانك صاحب المنزل المسوءول عن كل شيء فيه ما عدا السقف

— انت غلطان فصاحب الملك عليه التصليح لا سيما والمستاجر كان خارج المنزل

— لا تعالجنا يا جبره فانا حمدت الله الف مرة لاني خلصت من شرك هذا النهار والمسالة لا تحتاج الى صياح ومماحكة اسال من تريد فيجيبك انه اذا انكسر شيء من

انزجاج فاصلاحه على المستاجر

— والله لو هبط البيت وصار هباء منثورا تخطف ذراته الارياح لا ادفع بارة واحدة لان هذا ليس عدلا والشريعة دائما مع المستاجر ضد صاحب الملك والوكيل فاسال غيرك اذا كنت جاهلا هذه الحقيقة

— لا تقل جاهلا ولا ماهلا فانا اعرف منك بالامر وقد جعلت الذي كسر زجاجه يدفع عنه في الحال فلماذا المماحكة يا جار احسمها ولا تدع الناس يتجمهرون على صياحنا فانهم سوف يشبعون ضحكا منك اذا سمعوا منك كلامك هذا

ولا حاجة الى الاتيان على كل الحديث الذي جرى بينهما فهذه مقدمة له وان القارىء اللبيب يستطيع ان يصور في مخيلته ماذا يعقب هذه المقدمة من النتائج ولا سيما بين المدعوين متشرعين لكثرة غلبتهما وعدم اعطاء الواحد طريقا للاخر لكي ينسحب فيمضي الاثنان

وكالعادة اخذت المشاحنة زهاء ساعة بينهما وكل يدعم رايه بالبراهين وينهال على الثاني بالتعييرات فالمسبات هازئا بقلة عرفانه وجهله الفاضح لامور بسيطة يعرفها اي الناس

وكان الناس قد تالبوا من خارج البناية وداخلها ومن

الجوانب والاعالي يتفرجون على البطلين — بطلي الشريعة يتشارعان على امر لم يكن من سبيل لاحدهما ان يرى منه مخرجا حتى اخذت المسالة دورا جديا انتهى معه دور المماحكة وذهب عن جماعة المتفرجين دور التسلية ايضا لان الاثنين تماديا بعدما اسمع كل منها الاخر اشياء غليظة فتدافعا وكادا يتلاكمان فتدخل بعض المتفرجين بينهما وكبرت المسالة الى حد ان فريقا احتمل جبره وفريقا اخر اختطف داود فادخل الاول احد المنازل والثاني غيره وكل منهما مطبق بقبضتيه والدم على اهبة التفجر من وجنتيه وفمه يخرج حمم الكلام والصعقات على الاخر

والتف قسم من الجمهور حول جبره واخر حـــول داود يهدئون روع كل منهما حتى ان الاوان للصلح بينهما وبعد الاخذ والرد قر القرار ان يقترب كل منهما خطوة نحو الاخر فنقل جبره من المنزل الذي ادخل اليه الى اخر محاذ له ونقل داود من ذاك الذي دخل اليه ايضا الى الذي ادخل فيه جبره من جديد وهناك تجددت الشوءون والشجون لان الاثنين رفض كل منهما القيام الى ناحية الاخر لمصالحته مدعيا ان الحق معه وعلى رفيقه ومن كان على هذه الصفة يجب ان تحترم مكانته فلا ينهض لمصالحة الاخر قبل ان ياتي هو اليه

عندئذ صاح اكثر القوم تقدما بالسن صيحة هدا لهـا المكان ولما تم له ذلك وقف بين المتخاصمين وقال

«الحق على الاثنين...»

وما كاد يبدا بالكلام حتى نهض الاثنان يريـدان محاجة المتقدم ولكنهما اعيدا بالقوة كل الى مكانه وبعدئذ تابع ذلك المتقدم كلامه فقال

«نحن كلنا اخوان وما على احد منا الحق..»

وما كاد المتقدم يصل الى هذه العبارة حتى عاد الاثنان فنهضا و كل مد ساعده نحو الاخر وقال «بل الحق عليه»

فاعيد الاثنان ثانية الى مكانهما بقوة الجذب ولما عاد الهدوء من جديد تبسم المتقدم وتابع كلامه فقال.

«يا اخوان انا اكبركم سنا اطلب من الاثنين شيئا واحدا وهو ان يرضى كل منهما عن الاخر اذا وصل اليه حقه ولهذا ارى ان لوح الزجاج انكسر وللوح الجديد ثمن فلا المستاجر يغرم بثمنه ولا الوكيل يدفع عنه فارجو منهما ان يسمحا بان ادفع من جيبي ثمنه فنفض المشكل وينتهي الامر وتعود المياه الى مجاريها»

قال هذا ومد يده الى جيبه واخرج كل ما كان فيه من النقود ثم فتح عليها يده امام داود وقال له ان ياخذ منها ثمن اللوح المكسور فاجاب داود معتذرا بان ثمن اللوح

وصل من زمان ولا حاجة الى خسارته

وكان ان جبره ايضا شد العم المتكلم لناحيته واخبره بان اللوح المكسور ليس من منزله ليتكرم بدفعه بل هو من منزل غير منزله .

عندئذ قهقه القوم وصار الجميع في شبه غيبوبة من الضحك الذي سرت عدواه الى المتشرعين ايضا فابتسم كل منهما اولا ثم ضحكا مع الجمهور وعندئذ قال الوسيط وهو دون الباقين ضحكا فقد كان مندهلا متحيرا بما سمع ورای

«اذن تخاصمتما على لا شيء»

فقال داود

«نعم يا عم على لا شيء ولو ان جبره استوعى كلامي لما توصلنا الى كل هذا »

وقال جبره

«ولو انك انت فهمت ما قصدت لما صرنا الى ماصرنا اليه»

فضحك القوم من جديد وساعدهم الوسيط المتقدم وامسك كلا من المتشرعين بساعده بعد ان اعاد النقود الى جيبه وجذبهما اليه فنهضا بسهولة ثم شبك يديهما ببعضهما فاطاعا وقال لهما وهو يضحك مقهقها

«مَن يختصم على لا شيء يصطلح على لاشيء ايضا»

تعاسة البيك

نعامة البيك

اصطلح السوريون على ان يذهبوا مذهبا باللقب غريبا عجيبا فانه اذا غلط ذو مقام باسم احدهم ونعته مثلا بافندي اوبيك صار المكتوب اليه افنديا او بيكا واصبح يطلب من الناس مراعاة مقامه واعتبار لقبه

بين السوريين عديدون لهم القاب مدنية ولا ادري من اين جاءوا بها ومن يدري ؟

ولا ادري اذا كان احد ذوي الالقاب المتباهي بها سال نفسه يوما «لماذا اعطيت لقب بيك ولم ينله غنطوس فلقيوس وقاد الفحم في منزل ابي حرفوش مثلا؟»

حب الالقاب عادة تمكنت في بعض الناس الى حد انها صارت عندهم شيئا عظيما من حياتهم.

كان المسكين نصر البيطار او نصر بك البيطار في سعادة من حاله يوم كان خاملا لا يدري به احد فكان يحمل حقيبته ويبيع سلعه على الامير كان في الشتاء في «فلوريدا» وفي الصيف في «مين» وكان يؤمل ان يصير تاجرا عندما تصل ماليته الى عشرة الاف ريال وهو ساع بجد واقدام وراء هذه الغاية

الا ان الدهر لا تصفو طرقه التي يسلكها بنو المصائب

وللدهر بدع في جلب المصائب على بنيه فاذا كانت التعاسة تاتي انسانا عن طريق الفقر او المرض او الموت فتعاسة نصر البيطار جاءت عن طريق البكوية والى القارىء الخبر

انشئت في لبنان عام ١٩٠٢ لجنة للاهتمام بامر معرض وطني تنشيطا للتجارة الوطنية وتناقلت الجرائد في الوطن وفي المهجر امر هذه الحركة ولما اطلع عليها نصر اعجبته كثيرا وحركته عوامل الغيرة على الوطن لان مكان المعرض في قريته مسقط راسه فهب لساعته وارسل مئة ريال باسم اللجنة في لبنان مساعدة لهم في حركتهم · وبعد شهرين جاءه جواب كتابه ممضيا باسم المتصرف وعلى الظرف كتب هكذا «لمطالعة الشهم الوطني الغيور نصر بك البيطار»

اما نصر فلما جاءه الجواب لم يصدق بادىء ذي بدء ان الكتاب له فقراه اولا وسمع المتصرف يهذ بحمده ويكيل له عبارات الثناء على كرمه ووطنيته ثم قراه ثانية وعيناه تكادان تتفجران تبحرا في عبارات الكاتب ثم قرا الظرف ذهابا وايابا وعيناه لا ترفان وقد قراه اكثر من عشر مرات متوالية حتى كبرت امامه كلمة «بيك» الى درجة ان كاد الظرف لا يسعها

بك · نصر بك البيطار! بك· بـــــك !·····

وقد ظل المسكين زهاء ساعة تارة يقرا رسالة المتصرف

وطورا يقرا الظرف وهو بين مصدق وغير مصدق اهو يا ترى نصر بك البيطار واذا لم يكن هو فمن هو نفسه؟

واخيرا عاد الى المسكين رشده فايقن انه هو نفسه نصر بك البيطار وان كلمة «بك» جاءته لقبا من دولة المتصرف جزاء له على خدمته للوطن · ثم عاودته الفكرة فسائل نفسه «اهي غلطة يا ترى من المتصرف وهل يغلط المتصرف»

لالا ليس بالمسالة غلط البتة فالمتصرف انعم عليه باللقب والامر لا يحتاج الى برهان ولا الى شاهد حال فما كتب بالحبر على الورق لا ميل الى التردد في تفسيره المسالة واضحة فان الخط خط المتصرف بيده ــ نصر بك البيطار ــ لا حاجة الى بيان وكفى

ولم يمض ذلك النهار حتى عرف اكثر الذين يعرفهم انه صار بيكا فصار منزله مقصد المهنئين ثم وصل الخبر الى الجرائد فنشرته وذيلت الخبر بالتهنئة ايضا وان اللقب صادف ربه عن كل جدارة واستحقاق

اما مالية نصر بك البيطار فلم تجتز خمسة الاف ريال في حين حلت عليه بكوية المتصرف وقد كان كما المعنا ينتظر وصولها الى عشرة الاف ليصير تاجرا ولكن البكوية وحمل الجزدان لا يتفقان ولهذا فبالرغم عن قلة راس المال اضطر المسكين ان يفتح تجارة بين التجار · ثم انه كتب

الى اهله في القرية يعلمهم بالخبر المفرح وهناك عيد اهله عيدا عظيما محتفلين ببكوية ابنهم نصر وشاركهم بذلك الفرح اهل القرية وقد انفقوا من البارود ما يبلغ ثمنه خمسين ليرة بذلك الاحتفال

مضى على تجارة نصر بك زهاء السنة وقد كادت تبلع خسائره راس ماله لان اكثر زبائنه عرفوا موطن الضعف فيه فكان واحدهم اذا اراد استزادته بالدين لقبه بالبيك واذا احب استنزاله بالسعر تملقه بعبارة «يا سعادة البيك» فما كان البيك او سعادته يرى الا الانصياع لارادة زبنه الكرام حتى ادى به الامر الى الخسارة وفي نهاية السنة صفى اشغاله ووطن النية على العودة الى الجزدان لئلا يحدث افلاس بشغله فيصير مضغة الافواه وهذا عار على ملقب مثله

وقد كان لنصر بك كاتب يمسك دفاتره وكان هذا شابا ذكيا يحتقر سيده لبكويته وكثيرا ما اختصم الاثنان بشانها لان الكاتب لم يناد نصرا ملقبا بالبيك الا بعد تهديد بالطرد ولكنه في اخر ايامه عنده ككاتب صار يكثر من تلقيبه بالبك على سبيل الفكاهة فكان يناديه ضاحكا وهذا مما كان يغضب نصرا ولكنه كان يغضي عن ذلك لعلمه ان ايامه معدودة فاقفال المحل سيكون في اخر الشهر وحينئذ يفارقه ويتخلص منه

في اخر ايام لتجارة نصر بك اجتمعت بكاتبه فانباني ان محل بيطار بك قد اقفل فهززت راسي تاسفا على خسارته وقلت للكاتب ان تجارة ذلك المسكين لم يكن لها محل من الاعراب فاجابني وهو يبتسم وقال «الحق ليس عليه بل على المتصرف في لبنان» فقلت ما دخل المتصرف بذلك؟ فاجاب وقال «انه غلط ولقبه بالبيك فدخل التجارة ليعلي مقامه فانتهى امره بالخسارة وهذا كل ما كان»

فضحكت للامر وضحك معي الكاتب وقد تحركت شفتاه كانهما تريدان ان تنطقا بشيء ولكنه لم يرد ان يخرج صوته وهذا لا يخفى علي فسالته ان يقول ما في ضميره. فتردد اولا ولكنه ضحك ضحكة شديدة وقال لي «اقترب مني لاريك» فاقتربت ومد يده الى جيبه فاخرج قطع ظرف قادم من البلاد وعليه ختم دار الحكومة في بعبدا فتطلعت اليها بشوق لارى ماذا فيها . فما كان منه الا انه وضع كل قطعة بمكانها الاصلي قرب بعضها وقال لي اذ ذاك اقرا فقرات هذه العبارة

«حضرة الخواجه نصر البيطار من قرية عمطير ونزيل الولايات المتحدة»

قلت اهذا هو نصر بك البيطار فقال «هذا هو بعينه

وهذا الظرف هو بخط نفس المتصرف الذي كتب لذلك المسكين منذ سنة ووضع له لقب بيك مع اسمه» قلت ومن مزق هذا الظرف. قال «نصر بلك او الخواجه نصر نفسه عقب وصول هذا الكتاب من دولة المتصرف اليه يسأله فيه شيئاً نافعاً وقد مزقه ولعن المتصرف اما انا فجمعت قطع الظرف لاعرف سبب سخطه على حاكم بلاده وبعدما عرفت السبب الان اشاركه بلعنه المتصرف ليس لارساله هذا الكتاب بل لذلك الجواب الذي كلف المسكين كل ماله المجموع بعرق جبينه وعناء سنة وربما سنين وضحك الناس وازدراءهم»

ابن غير عصيره

ابن غير عصره

عندما ودع ابو ريا سيده في المدينة قال له انه لن ينسى فضل البيت الذي ربي فيه منذ كان طفلا الى ان بلغ سن الكهولة وما كان ليترك خدمته لولا ان في راسه موالا يريد ان يغنيه وذلك الموال مشوار الى اميركا٠

اما سيده فبعد ان اعيى من اقناع خادمه ابي ريا بالبقاء عنده مع زيادة في الاجرة هز يده متاسفا وقال له:

«يا ابا ريا انك ربيتني وكنت لي كاخ ورفيق في زمن شبابي ثم ربيت اولادي وقد حملتهم ذراعاك اكثر مما حملتهم ذراعي وقد راينا منك في السنين العديدة التي خدمت بها بيتنا من زمان المرحوم والدي الى اليوم ما يجعلنا نعتبرك واحدا من العائلة ففراقك سوف يؤلمنا ولكنك تلح بترك الخدمة فعساك ان تتوفق واعلم انه حين تعود بيتنا مفتوح لك ووظيفتك ترجع اليك في حال رجوعك طمئنا عنك ولا تنس معلمك والاولاد الذين ربيتهم وقد تعلقوا بك كانك ابوهم»

وركب ابو ريا البحر قاصدا اميركا المرتزق العظيم لمن اوصدت ابواب النجاح بوجهه في سوريا٠ سار وقد اثر فيه وداع سيده واولاد سيده اكثر من عائلته وقد تردد وقتا

بالعدول عن عزمه الا ان ذلك الموال كان غـلابا فترك المقادير تجري باعنتها وهجر الاهل والوطن متكلا على الله الذي لا يخيب امل خائفيه·

في اميركا قطع ابو ريا سنوات يشتغل في مزرعة بعيدة عن نيويورك ولم يبرح منهـا الا حين وطن النفس على العودة الى الوطن·اما شغله فلم يتصل بي نوعه ولكني علمت انه كان عاملا شديد الحرص كثير الاجتهاد·

عرفته بالسمع اذ كان صديقي سليم الرقاش يذكره امامي في احاديثه فكان يخبرني انه في اميركـا وعلى مقربة من نيويورك خادم لهم اسمه ابو ريا وقد مضى عليه سنون عديدة ولا بد ان يكون ناجحا · ولم يكن صديقي يعلم مقر ذلك الخادم ولا اجتهد في الحصول على عنوانه الا ان كثيرا ما كان يذكره قائلا انه كان مربيا له وقد كان في بيت ابيه نعم الخادم الامين·

صديقي سليم الرقاش شاب من عائلـة طيبة لا بل من العائلات الموصوفة بالاكابر وقد درس العلوم في احسن مدارس سوريا وتضلع من اربع لغـات حية الا انه قصد اميركا لان اباه عزل من وظيفته وانحطت حالتهم المالية وكشاب متعلم تربى على العز والبذل راى في انحطاط مالية ابيه حطة له في البقاء بين اترابه الذين اعتادوا ان

يروه كثير البذل يقطع ايامه في القهاوي على الملاهي لا يعمل عملا لان ابناء الاكابر لا يعملون. ولهذا اراد ايضا ان يغني الموال السوري كما غناه مربيه وخادم ابيه ابو ريا فقصد اميركا للارتزاق الا ان هذا الشاب في اميركا لم ير بابا لارتزاقه فقد جاء الى العالم الغريب باخلاقه وعلومه فكان يشتغل مضطرا ويعمل اذا اعوزه الحال ثم يترك العمل حالما يرى انه يستطيع ان يقتات وينام فادى به الحال الى نزوعه الى داء المتهذبين القليلي العمل وهو المقامرة فكان ينام النهار مكبا على احدى طاولات القهوة ويعمل الليل ساهرا على قلب الورقة فاذا خسر فدين عليه واذا ربح فربحه عون له على يومين او ثلاثة. وقد قطع سنوات وهو ملازم لهذه الحال يتدرج من سيء الى اسوأ. الا انه كان محبوبا من جميع معاشريه للينه واخلاقه الكريمة وحسن معاشرته وكان ايضا عونا لزملائه لدى وقوعهم في مشاكل لانه كان ضليعا من اللغة الانكليزية فكان يترجم لهم في المحاكم ويرافقهم في مشترى الامتعة والحاجات الى ما شاكل.

اما اصل تعرفي عليه فقد كان صدفة وقد عرفني عليه صديق لكلينا فملت اليه لما انست فيه من علم وتهذيب داخلي بالرغم من سوء مظاهره وعكفه على المقامرة وقلة

عمله او عدمه فقد كنت احب الاجتماع به للمحادثة بامور عديدة فقد رايته ملما بشوءون كثيرة يستطيع محادثه ان يخوض معه بمواضيع علمية وسياسية واقتصادية وغيرها وما كنت اعلم كيف ان شابا بحالته ومعارفه يابى ان يعمل ويترك ميدان النجاح لغيره ممن دونه مقدرة وتهذيبا فيوءثر البقاء على الامه على ان يقتاد لنفسه الراحة من وراء التحصيل والبلوغ الى ما تطمح اليه النفس المهذبة الشابة. ولكني لما لم اكن اعرفه لم اقو على سواله فكنت اتجاهل حاله لان ذلك لا يعنيني وارافقه في معارفه واخلاقه لان هذه تتصل بمعارفي واخلاقي.

في يوم من الايام كنت وسليما نشرب القهوة في احدى القهاوي وقد ضمني معه مجلس فكاهة او كما يقولون مجلس «تفريق» وبينا نحن نضحك اذا بصاحب القهوة صاعد على السلم وخلفه رجل متقدم في سنه بثياب بسيطة اقرب الى ان تدعى رثة بلا طوق ولا ربطة وفي رجليه حذاء غليظ كالمداس وعلى راسه قبعة كبيرة الدائرة كثيرة الخدوش.

وعندما وصل صاحب القهوة الى القهوة اشار للرجل الموصوف انفا دالا على سليم وقال له: «هذا هو سليم الذي قضيت يومين تسال عنه كل السوريين»

وفي تلك الساعة ابرقت اسرة الرجل فابتسم ابتسامة

عريضة واسرع خطاه الى سليم فصافحه وقد قارب لسانه ان يعقد من كثرة فرحه ثم انحنى قليلا نحو يد سليم واراد ان يلثمها اما سليم فلم يعلم من هو الرجل ولا ماذا يريد ولكنه لاعطاه يده مسايرة ظانا انه غلطان ولما اراد ذلك الرجل ان يلثم له يده وقد شعر انه في مهمة لثمها لانحنائه المتباطىء عليها سحب يده بسرعة واجلسه الى كرسي وساله من العم؟

ــ انا انا الم تعرفني يا معلمي؟ انا ابو ريا مربيك وخادم ابيك انسيت ابا ريا يا معلمي سليم؟

عند هذا التعريف عاد سليم فهز يد الرجل هزا كثيرا واخذ الاثنان بالكلام فتساءلا وتجاوبا وافرغ كل جراب اخباره للاخر وقد رايت دمعة تتجمع في عين الشيخ وكادت تنهدر فمسحها بطرف كمه. ولما اراد سليم ان يعرفني على ضيفه هززت يده وقلت له اني اعرف شيئا عنه لان سليما كثيرا ما كان يذكره امامي.

وعاد سليم الى محادثته فقال له: اي يا ابا ريا لو كنت اعرف اين مقرك لكنت زرتك حيث كنت خلال هذه السنوات والان ما حالك؟

فاجابه قائلا: ان التقادير ارسلتني يا معلمي الى اميركا فاشتغلت فيها والحمد لله حصلت على النجاح اكثر مما استحق وها انا ذاهب الى سوريا لمشاهدة الاولاد والعيال

فلم يبق في سراج حياتي من الزيت الا ما يكفي لايام معلومة ساقضيها بينهم.

— خبرني كم ريال اخذ معك من اميركا.

— ايه نحمده على كل حال منحنا اكثر مما نستحق ومن فضله وكرمه في جزداني خمسة عشر الف ريال.

عند هذا اجابه سليم : انت معك خمسة عشر الف ريال وتاتي لتبوس يدي كان يجب عليك ان تمد يدك من الباب لدى دخولك حتى انا اتي لاقبلها.

وعاد ابو ريا الى الوطن فودعه سليم الى الباخرة وقد رافقته لاستطلع شيئا من حالة الاثنين فساعدنا الشيخ بايجاد محل له بين ركاب الدرجة الثالثة وبعدما خرجنا من الباخرة قطعنا اربعة مربعات دون ان يكلم واحد الاخر ثم شق سليم حجاب السكوت بقوله: الا ترى اننا نحن لم نخلق لهذا العصر؟

فقلت كيف؟

فاجاب نحن في عصر قسم الدنيا فيه الى عالمين عالم قديم وعالم جديد وهذا الجديد ليس لامثالنا بل لمن يحصلون الدينار من قلب الصخر ويكنزونه في قلب الصخر واما ذاك القديم فصار لهؤلاء الناس الذين يعودون الى اوطانهم بريالاتهم فيبنون المنازل ويشترون الارض ويكون

لهم المحل الرفيع في عيون الناس لما في جيوبهـــم من الريالات .

نحن لم نخلق لهذا العصر!

من اول الطريق

من اول الطريق

كان الناس من اقارب فهد الضاهر ومعارفه ومواطنيه يرثون لحاله كلما راوه ويأسفون على ما يضيعه من الايام سدى ويهزون روءوسهم اسفين وقائلين من اعماق قلوبهم الله يهديه بحسنة ابيه المسكين واهله في الوطن!

اولئك كانوا عارفين بحالة عائلته في الوطن فان اباه اقعده المرض عن العمل وهو رب عائلة كبيرة فما كاد ينهي فهد دروسه الابتدائية حتى استدان له ابوه مبلغا من المال فارسله الى اميركا ليكون له عونا على دهره وزوده بالنصائح الوالدية والادعية الابوية وقال له: انظر يا ولدي حالتي فاني بها ليس لي الا الله وانت من نصير لتحسينها ودفع البلاء عن العائلة فاذهب الى اميركا بلاد العمل وكن رجلا واذكر ان لا امل لي بالفرج الا بك

ووصل فهد الى اميركا وكان بادىء ذي بدء شابا يتلهب غيرة على ابيه المسكين رب العائلة الكبيرة وقد عقد نيته على ان يبذل كل ما استطاع ليساعد اباه في حاله

شاب مهذب جميل الصورة لو انه لبس فسطانا وبرنيطة للسيدات وهو كما هو حليق الشاربين طويل الشعر قليلا ابيض البشرة احمر الوجنتين كبير العينين مستدير الوجه

لقال الناس انه من اجمل الفتيات

وقد كان المذكور في بادىء امره لا يشغل راسه الا الافتكار بحالة اهله والطريقة اللازم اتخاذها لمساعدة ابيه فاضطر الى الاستخدام وكان يرسل الى اهله ثلث ما يحصل الا انه بعد حين اقتصر على ارسال الربع ثم بعد اشهر على اقل من الربع وبعدئذ ترك عمله كمستخدم في محل تجاري لان نفسه عافت الحصر ومالت الى الاستقلال فاضطر الى امتهان البيع بالجزدان وصار يتنقل من بلد الى اخر متكلا على مظهره الخارجي البديع ولفظه الانكليزي الجميل وبعض اجتهاده وكان يطمح الى التعرف باكابر العائلات الاميركية مترقبا منها الانعام الكبير وقد حصر كل طموحه في أن يصير عميلا لبيوت الاغنياء في المصيفات والمشتيات

شاب جميل الخلق اذا وقعت عليه عين قالت صاحبتها: سبحان من خلق! هذا هو فهد الضاهر. وقد كان ايضا هو نفسه ولوعا بجماله فلم يكن يدخر وسعا ولا مالا ولا وقتا لجعل حياته ملائكية معتقدا من نفسه بان للمظهر الخارجي كل التاثير على الناس الاغنياء والاكابر ولهذا لم يكن قادرا على التوفير فان كل ما كان يربحه من شغله لم يكن الا بعض ما تتطلبه نفسه من لباس ومعدات للزينة وبناء على هذا انقطع عن مساعدة اهله بعد مدة وصار لا يرسل

الى ابيه مبلغا من المال جزئيا الا بعد ان يكون قد جفف ابوه المحابر و كتب الى اناس اقرباء يستعطفون ولده لينجده ولهذا كان الناس الاقارب والمعارف دائما ياسفون على ما وصل اليه ذلك الشاب ويطلبون له في قلوبهم الهداية لعله يقلع عن البذخ فيوفر مالا يساعد به اهله المعوزين

و كان فهد يتالم كثيرا لعدم استطاعته مساعدة ابيه ولكنه في الوقت نفسه يشعر بدافع من نفسه للطموح الى الغنى الفجائي عن طريق جمال الصورة وحسن الهندام وهي حالة اليمة لم يكن له مناص من تعذيب عامليها الا ان العامل الذي غلب منهما هو الدافع النفسي فيه للزينة والتبرج.

و كثيرا ما كان فهد ينفق على لباسه الخارجي كل ما معهفي حين ان معيشته الداخلية لم تكن موازية للخارجية منها فبينا تراه كانجال الامراء محيا ولباسا اذا هو ساكن غرفة مفروشة ضيقة تحمل سريره وقدميه فقط وهو واقف وبينا ترى طقمه ظريفا وقميصه حريريا وعقدة رقبته تماثل جراباته لونا يكون المسكين بلا «اندروير» او انه بمقتضى ما يظهر فيه من حسن الهندام يظن رائيه انه يعيش في احسن نزل بامير كا ولكنه في الحقيقة كان غذاوءه لا يزيد ثمنه على ثلاثين سنتا. وهي حالة كانت تعذب فوءاد فهد وتضنيه وتحمله على المواظبة في عمله ولكنه لم يصل الى مرماه

وذلك انه تمكن في السنوات الاولى من ان يملأ صفحات كتابه اليومي من عناوين احسن العائلات الغنية وقد كان مرضيا عنه ومقربا منها محبوبا من افرادها ولا سيما السيدات اللواتي احببن منه جمال الخلق فكن يشترين من بضائعه ويعطينه رسائل توصية الى صديقاتهن في البلاد الاخرى

وانتهى الامر بان فهدا تزوج وقد تناولت صحافة البلاد امر زواجه الغريب فانه وهو شاب على ما وصف به انفا قد اختار لنفسه عروسا متقدمة في سنها تزيده عمرا لا اقل من ثلاثين سنة اي ان اصغر ابنائها يزيده بضع سنوات وهي من عائلة معروفة في اميركا وارملة احد مشاهير الماليين. وقد عقب هذا الزواج الغريب قيام عائلتها عليها وعلى زوجها فاوصلوا الامر الى المحاكم مدعين عليها بانها خرفة ولكنهم فشلوا بحملاتهم عليها وبقيت زوجة فهد وصارت بحق الشريعة مسز ضاهر امراة الشاب السوري الظريف فهد الضاهر

اما السوريون فقد تناولت السنتهم تلك الحادثة متعجبين وقد ذهبوا مذاهب شتى بتفسيرها وتحبيذها وانتقادها الا انهم بعد ايام قد ازاحوها من رؤوسهم ولم يعد فهد الضاهر وزوجته يملأان ادمغتهم وصار المذكور عندهم معدودا من الاغنياء لان ثروة زوجته تبلغ الملايين

ولا مراء بان فهدا قد ضحى شيئا من نفسه ليخلص نفسه

من عامليها المعذبين عامل الطموح الى المعيشة المرفهة وعامل البنوة وما عليها من الواجبات لدى اب مريض مسكين كل امله في الحياة نجاح ولده الاكبر فهد الضاهر

اما فهد الضاهر اليوم فهو مطلق لا زوجة له ولا ثروة كبيرة وذلك انه بعدما صرف سنتين مع زوجته المتقدمة في السن لم يعد في قوس صبره منزع فثار على شريكة حياته وساعده بثورته هذه بعض انسبائها واحد ابنائها فرضوه ببعض المال ليتخلص من زوجته الشرعية وبعد مرافعات انتهى الامر بطلاقه منها ام بطلاقها منه

وقد بلغني ما انتهى اليه امر فهد المذكور فعجبت لانتحابه من نصف الطريق بالرغم من انه استعد لان يعبره كله وقد احببت الوقوف على تفاصيل المسالة لا لاعرف ميله في تزوجه من تلك السيدة الغنية بل لافهم لماذا لم يبق زوجها حتى تموت ويرث بعدها ملايينها

اجتمعت به فجاذبته الحديث عما جرى له فقال لي انه اضطر بالزواج لانه قال في نفسه انّ تلك السيدة قاطعة السبعين من عمرها فمهما يطل عمرها لا يقطع الثمانين ان لم يكن اقل ولكنه اخيراً تيقن ان زوجته في الحقيقة اصغر عمرا مما ظن فانها لم تقطع الستين ولهذا قال في نفسه من اول الطريق ولا لاخرها

تمثال الحرية

تمثال الحرية

ما كاد ابوا نخله المعصوب يفرحان به اي يزوجانه بنت حلال كما يقولون الا ودخل في عقله ضرورة الذهاب الى اميركا لبناء المستقبل وبالرغم من بكاء ابويه والحاحهما عليه بالبقاء ودع الاهل والخلان وسار بعروسه قاصدا بلاد اميركا كعبة المرتزقين

اما عروسه فكانت فتاة اصغر منه بعشر سنين وهو في الثامنة والعشرين وقد كان في بدء عهده بالزواج اميرا في بيته اذ انزل في قلب امراته الرهبة فصارت تعتبره سيدا اكثر من زوج وتداب على نيل رضاه بكل ما يتطلب وكان هو يحبها كثيرا ولكنه كرجل ظل محافظا على مقامه كسيد للبيت وراس للمراة له المقام الاول وله الامر وما عليها الا ان ترضيه وتتبع اوامره

ولقد فكر طويلا بادىء الامر بان يقصد اميركا وحده ثم يستقدم اليه امراته الا انه لم يقو على مفارقتها لانه شعر بحبها وبالحاجة الى ملازمته اياها ولهذا اخذها معه وسار الى بيروت ومنها الى مرسيليا فنيويورك فالداخلية واستقر في قرية كبيرة من قرى ولاية اوهايو

في السنة الاولى لوصوله ذاق نخله المعصوب اهوالا

بتحصيل معاشه فانه لم يحصل على شغل يدر عليه نفقات العائلة الا بعد الجهد وقد تراكمت الديون عليه من انسبائه وخلانهولكنه عمل اخيرا انما عملا يكاد لايفي بالمطلوب وبقي هذا حاله ثلاث سنوات تارة يبيع السلع واخرى يشتغل في المصانع بالاجرة وهو لا يزال كما كان اكلا شاربا مع امراته وانما الديون للناس تضيق عليه الخناق واصحابها ولئن كانوا من اخصائه ولكنهم لم يسعفوه بها لتظل في ذمته الى الابد ولهذا صاروا اذا اجتمعوا به يشيرون عنها فيفهم منهم المقصود ويعللهم بالمواعيد حتى نفدت حيله

وجاءه نسيب له من التاجرين في البلد وذو مخزن كبير يبيع منه البضائع الرائجة اللازمة لباعة الجزدان فقال له

«يظهر ان احوالك لن تصطلح فانك بعد الجهد تستطيع ان تقوم باود البيت فلماذا لا تعمل حركة لتفي ديونك وتخلص ذمتك من الدائنين وتوفر لك كم ريال»

فاجابه نخله متنهدا من قلب محروق وقال له·

ــ وما هي الحركة لاحصل اكثر مما احصله؟

الحركة هي ان تبقى انت في الفبركة وتذهب الست ادما للشغل بالبيع وانا املا لها جزدانا كبيرا وادربها على العمل فتساعدك على الحال واوءكد لك انه لا يمضي عليكما سنة حتى تنتفضان من الديون التي عليك ويكون لك مبلغ

في بنك التوفير.

اما نخله فقد مانع كل الممانعة وكادت دموعه تنزل من عينيه لاضطراره الى عمل امراتهولكنه اقتنع من نسيبه اذ بين له هذا ان المسالة بسيطة جدا وقد تصعب على الذين يقدمون الى اميركا حديثا لا سيما اذا كانوا من العيال المعتبرة في البلاد اما هنا في اميركا فالنساء انجح شغلا من الرجال والمراة تسابق الرجل في العمل

وقبل من نسيبه هذا الاقتراح ولم يمض على الست ادما نصف سنة حتى صارت من البائعات الناجحات تماما بالطبع بعد شقاءالعلم والتدرب على اساليبالبيع واختطاف اللغة الانكليزية من السن الناطقين بها

بعد ست سنوات نقلت عائلة نخله من اوهايو الى مدينة نيويرك لانها كبرت فقد رزق الله نخله ثلاثة اطفال وظلت امراته تقصد ابواب الرزق بينا هو كان يعتني بالاطفال في غيا بامهم وقد ترك العمل واصبحت الحياة كلها عنده وعند عائلتهمعلقة بجزدان «الست»

بعد هذه المرحلة لم يعد نخله اميرا في بيته بل صار اجيرا لامراته واطفاله وصارت هي راس العائلة وقد تدرجت من حالة الى اخرى حتى صارت الامرة الناهية وزوجها «لبيك عبدك بين يديك» لا يجسر على الاعتراض ولا يستطيع ان

يفوه بكلمة انتقاد او اقتراح الا الاستحسان والامتنان

وظل نخله يبلع الهموم ويهضمها حتى تعطلت معدة احتماله ففي ذات مساء عادت السيدة ادما من شغلهاالى الست فما وجدت نخله ورات الاولاد يبكون ويشهقون وبعد ان دبرت حالهم بالتي هياحسن نزلت تفتش عن زوجها وفي قلبها نار الغيظ تضطرم فعثرت عليه جالسا على مقعد في حديقة الباتري وهو غائب عن هذهالدنيا بافكاره يقابل بين حالته في بلاده حيث كان اميرا وحالته في مهجره حيث صار اجيرا فانهالت عليه ادما بالسباب والتعييرات وقادته الى البيت واخطرته انه اذا اعادها مرة ثانية تطرده من البيت وتستخدم احدا يعتني باطفالها في غيابها باقل مما تنفقه هي على ماكله ودخانه. فاجابها وقد فرغ اناء صبره: تطردينني من البيت اولست انا رجل البيت وابا الاطفال وزوجك؟ فقالت: انت رجل البيت وابو الاطفال وزوجي في بلادك واما في اميركا فانا كل شيء فما زال تمثال الحرية رافعا يده وهو تمثال امراة فانا لي الحق ان ارفع يدي في بيتي وامروانهي اعجبك هذا كان به والا فاختر لنفسك ما يحلو

عندئذ تذكر نخله تمثال الحرية فعرف ما معنى يده المرفوعة وفي قبضته ضوء وقد كان في حديقة الباتري حيث التجا يشغل فكره اولا بما معنى رفع يد ذلك التمثال

ثم استرسل الى افتكاره بحياته الماضية وما حل على راسه في اميركا فاجاب امراته اذ ذاك بصوت خافت وقال اذا كان ذلك التمثال رافعا يده فانا ارفع يدي الاثنتين من كل امر ولكن عندما نعود الى بلادنا سارجع باذن الله رجلا ولي حق الرجال

من الدب الى الجب

من الدب الى الجب

كنت اسمع ان ام طنوس راغبة في العودة الى الوطن ولكنها مضى عليها نحو سنة ولم تتزحزح من مكانها فسالت عنها احد اقربائها لماذا لم تسافر ام طنوس بعد ان اكدت لي انها ذاهبة لترى زوجها واولادها بعدما مضى عليها اكثر من عشر سنين. فاخبرني ذلك الرجل ان للمسالة قصة طويلة عريضة وانه اذا اراد ان يخبرني بها لا يصل الى اخرها حتى ينشق من الضحك

فقلت له لقد زدتني رغبة في الوقوف على حقيقتها فاخبرنيها

قال — تعلم ان ام طنوس جمعت اموالاً كثيرة بالاجتهاد الكثير والاقتصاد العجيب وقد كانت تشغل مصاريها في محل تجاري سوري صاحبه من نفس القرية التي هي منها وكان يضيف الى ما لها عليه كل سنة فائضا عشرة بالمائة وظلت هكذا كلما توفر لديها خمسون او مئة ريال ترسلها الى ذلك المحل لتقلب دراهمها بالفائض حتى انقلبت دراهمها انقلابا وصل الى الهاوية اذ افلس المحل وذهبت البيضة مع التقشيرة فلم يبق لام طنوس الا العافية الطيبة والهمة مع الانتقام من ذلك التاجر الذي اكل مالها وصارت ام طنوس لا تؤمن بعد ذلك الحادث باحد من الناس حتى اذا قيل لها ان فلانا تبلغ ثروته الملايين ولا باس ان تخزن

ماليتها عنده لتربح الفوائض تجيب بان العب احسن بنك وانه اذا ضاعت الامانات فاجعل مخزنك عبك ·

وصارت ام طنوس منذ سنوات تعمل باجتهادها الكثير لتعوض عما مضى من الخسائر تمشي من بلد الى آخر وعلى ظهرها كشة وفي يدها بقجة فتتحمل حرارة الشمس الثقيلة بصبر كلي وكلما توفر لديها بعض الريالات من عملة الورق بسعر عشرة فما فوق تكنزها في داخل صدرها وقط لم يخطر ببالها ان تعد ما صار معها من المال لئلا تطير البركة وكانت ريالاتها الملصقة بلحمها ترافقها بالاسفار وتبقى معها في الفراش حال المنام ولم يكن من لحظة واحدة فارقت بها ام طنوس صرة ريالاتها

وجاء الوقت الذي علم الناس به ان ام طنوس عازمة على العودة الى الوطن فباعت بضائعها وصندوقها وسريرها الخشبي وهيات حالها للسفر فقدمت الى نيويرك لتشتري جوازا للسفر وتغير العملة الاميركية التي معها الى ليرت

واسمح لي ان اختصر ما يمكن اختصاره فان للمسالة شروحا طويلة ولكني اكتفي بالجوهر فاقول ان ام طنوس على ما يظهر لم تبعد الريالات عن جسمها ولم تخرجها لحظة كل تلك السنوات لعلها تشم الهواء قليلا وتحافظ على صحتها لانه كما لا يخفى عليك الريالات مادة يطرا عليها

الهواء والتعفن زد على انها مع حضرة ام طنوس كانت تبلع كمية وافرة من العرق الذي افرزته حضرتها في خلال اتعابها ومشاقها وما اكثر ما افرزته من العرق

وهكذا صار فان ام طنوس عندما ارادت لاول مرة ان تخرج في نيويرك ما خبأته في عبها هلع قلبها ورسمت الصليب ثلاثا ثم توكلت على الله وسحبت تلك الضمة فاحست في البدء ان جسمها قد برد كما يشعر الانسان اذا خلع عنه قميص الصوف ثم وضعت الضمة امامها ويدها ترتجف

هنا شرع المخبر يضحك وصرت لا استطيع ان افهم منه النتيجة ولم يكن يتمالك نفسه عن الضحك لكي يفهمني ماذا كان الى ان شبعت نفسه ضحكا فتابع حديثه وقال —

ولكن تلك المسكينة لم تستطع ان تستخلص الا ورقتين بعشرة ريالات من كل تلك الضمة لان الباقي كان كانه كتلة ورق مطبوخة على النار وعبثا حاولت ان تسترجع ما فقدته هذه المرة لانها كانت كلما شكت امرها الى احد الناس يضحك طويلا عليها ويخبرها ان تستعيض الله

وهكذا عادت ام طنوس الى الداخلية لتعبئ بعض المال بعد ما ذهب عناؤها ادراج الرياح ولا أعلم كيف تخزن ريالاتها هذه المرة ولعلها تركب الكار اذا ارادت ان تنتقل من بلد الى اخر محافظة على صحة الريالات

كما صرنا تصيرونا

كما صرنا تصيرونا

لفارس الدوار تاريخ تجاري مملوء بالحوادث فقد افلس اكثر من مرة واحرق محله مرات ولكن السوريين لا يذكرون عليه شيئا من كل ما تاتي عليه لانه لم يؤذ بافلاساته ولا باحراقاته احدا من السوريين فكل الخسائر التي سببها كانت تقع على المتعاملين معه من اميركان واجانب. ولهذا لم تجر عليه حوادثه حطا بكرامته بين مواطنيه بل بالعكس لا يزال البعض يرمقونه بالاعتبار وينظرون اليه كرجل فارس تجاري خاض معامع التجارة فداس الصعوبات بسنابك ذكائه. نعم وان الكثيرين لا يزالون يصفونه بالذكي والرجل الذي يعرف كيف يأكل الكتف. وكل هذا لانه لم يؤذ احدهم بل كان يدفع ما عليه للمواطنين في الحال اما اذا كان يأكل الديون الطائلة على الاجانب فمن يهمه الامر؟

ومن الحوادث التي جرت لفارس الدوار انه اذ كان قادما الى محله باكرا على غير عادة منه لقي به احد المواطنين الساكنين في الحي القريب من المحل وللحال مال اليه ذلك المواطن بلهفة وقال له انه عند الساعة التاسعة من مساء اليوم السابق اذ كان مارا امام محله لاحظ النار تضطرم

في المحل وللحال استدعى رجال المطافىء فاطفأوا النار وقتلوا الحريق في مهده فلم تمس البضائع باذى وظل المحل سالما لصاحبه. قال هذا وقد ظن انه سينال مكافاة حسنة على فعله ان لم تكن بالهدية فبالكلام في الاقل الا ان فارس الدوار لدى سماعه ذلك الخبر اخذ العرق يتصبب منه كماء القرب وقد شعر انه نقص وزنا لا اقل من خمسة بوندات ولما اجاب ذلك المواطن على خبره قال له:ـــ «ويحك لقد خربت بيتي» ثم اتبع كلامه بضربة على جبينه وكاد يقع كمن خارت قواه. اما المخبر فقد لاحظ انه لم يات عملا يرضي فارس فمال عنه كاسف البال كالصياد المستعين بالناس ليسحبوا معه شبكته الثقيلة ولما يلقيها على الشط يرى حجرا فيها بدلا من السمك

وقد كان دائما يقول في مجتمعاته مع مواطنيه السوريين ان السوري مقتول نجاحه لانه يرتجي النجاح من معاملاته مع السوري وان المعاملة مع الاميركان افيد واغزر نجاحا.

قضى فارس الدوار سنواته الاولى في عالم التجارة يامل الربح من الشركات الكبيرة بضمانة المحال من الحرائق الا انه في المرة الثالثة لم «يطابق حساب القرايا على حساب السرايا» فانه كاد يخسر كل ماله وحياته اذ انفق الوف الريالات على المداعاة واخيرا انسحب بوسائط

غانما نفسه اذ كاد يزج في السجن ولولا لطف الله تعالى لوقع بشر اعماله. ولهذا مال بعد تلك السنين الى اكتساب الربح من وراء الافلامات والتسويات.

وفي هذه السنوات كان المحل الذي انشاه مسجلا باسم ابنته الصغيرة والمنزل باسم الام احتراما من مقدور يحل به وما اكثر ما كان يخبئه القدر لفارس الدوار في حياته التجارية!

ومن حكايات افلاساته انه في السنة الاخيرة لشغله كان محله اشبه بالمصرف فقد خلا من كل بضاعة ولم يبق فيه الا الدفاتر وكان هو مع الكاتب والمستخدم يصرفون ساعات النهار بالتقييد والامضاء والذهاب الى البنوك وكسب تواقيع الجيران والاولاد والبنات واسماء كثيرة لا اصل لوجود ارباب لها لكي تحسم سنداته في المصارف

وفي تلك السنة ظهر لفارس الدوار اعلان في احدى الجرائد العربية ان محله حاضر لقبول الامانات المالية التي يدفع عليها فوائد جيدة ويظهر انه «كبر البلعة» لصاحب تلك الجريدة فعقد له فصلا في باب التحرير جاء فيه ان الثقة بمحل فارس الدوار كبيرة وان المواطنين يقبلون زرافات ووحدانا الى محله ليستودعوه اموالهم الى ما هنالك

من الكتابات الماجورة٠

وقد انتهى امر المذكور بانه فلس اخر مرة واخذبجريرة التزوير في اليوم التالي لصدور ذلك العدد من الجريدة وقد خرج تحت كفالة مالية بمساعدة امراته وانفق على دعاويه في هذا الشان الوفا من الريالات وهو اليوم يشتغل سمسارا يشتري لتجار الداخلية بمقابل معلوم من المشتري والبائع كل بسر الثاني

اما الجدير ذكرا بقصة فارس الدوار فهو انه كان يعزو نجاحه في سنوات الحريق الى تعامله مع الاجانب فلما كان ما كان معه في سنوات الافلاسات والتسويات صار اثبت برهانا على مبداه الاول وهو ان معاملة السوريين تورد المرء حتفه التجاري فكثيرا ما يتنهد امام الناس ويقول انه لو بقي على معاملاته مع الاجانب لكان اليوم من ارباب الملايين الا انه لسوء حظه مال الى معاملة المواطنين فصار ما صار على راسه وخرب بيته ثم انه لليوم يندب سوء طالعه بارتكابه تلك الغلطة اذ مال الى مواطنيه فعاملهم وخربت تجارته حتى انه لايستحي ان يصرخ بالذين يطالبونه بالامانات وقد وعدهم في بادىء الامر بالوفاء انهم كانوا سبب خرابه فلولاهم لظل تاجرا كبيرا ولكنه خسر من جراء رغبته في نفعهم مالا تعوضه السنون الكثيرة٠

هذا ما حدث له باختصار ولكني مورد المغزى من حياة هذا الرجل وهو انه يوما اذ كنت موجودا في احد المنازل زائرا وكان حضرته من جملة الحاضرين اطلعنا احدهم على ما جاء في عدد ذلك اليوم من احدى الجرائد وفيه مقدمة طويلة عن نجاح المحل التجاري المعروف باسم «حمصوني وشركاه» وبها يلفت المحرر انظار القراء لمطالعة اعلانهم في الصفحة الثالثة. فما كان من فارس الدوار الا انه ضحك وهز راسه كثيرا وقال —

كما كنا كذا انتم   كما صرنا تصيرونا

الثقة في البشر

الثقة في البشر

في سنة ١٨٩٠ وصل الى الولايات المتحدة شاب في الثلاثين من عمره يدعى مصطفى الشاهين وقد كان ذا مطامح تجارية كبيرة الا انه كان خاليا من الاسباب التي توصله الى مراميه ولهذا اضطر ان يتاجر وانما متاجرة بسيطة فكان يجول القرى والمزارع حاملا صندوقه الخشبي يبيع الفلاحين دبابيس وامشاطا وسلعا صغيرة وظـل خمس سنوات يعمل ويجد حتى توفر لديه زهاء الفي ريال في الكمر الذي اتى به من البلاد وكان يتمنطق به تحت القميص في الاول خوفا على ما فيه من المال ولما استانس ولم يعد يخاف اللصوص لم يستطع ان يغير عادته فقد جرب يوما ان ينزع عنه الكمر ولكنه عاد اليه في اليوم التالي لان النزلة الصدرية مدت اليه يدها لتصافحه ولكنه لم يمد اليها يده ولهذا اضطر ان يعود الى سابق عادته

ورجل كمصطفى الشاهين لا يشغل عقله ووجدانه الا ان يكبر في عالم المالية ويصير على حسابه محل كبير يؤمه الباعة فيغنم منهم الارباح وهو جالس على كرسيه كالامر الناهي لا سيما وانه اكتسب بعض الخبرة في

جلب البضائع ومعرفة الغث من السمين منهـا يرى ان الالفي ريال التي ذخرها خير راسمال للتجارة

ولكن اين الزبائن؟

هنا سال نفسه هذا السوءال واعمل فكرته في الجواب عليه

ان المحل الذي يطمح الى انشائه لا يمكن ان يكون في نيويرك لان الرجل عارف نفسه انه غير كفوء للتجارة في بلد عظيم بين تجار عظام· وهو لا يفلح اذا انشاه ايضا في قرية من القرى التي قضى سنوات هجرته متجولا فيها لان القرية الواحدة لا تكفي لنجاح المحل لقلة سكانها في حين انه لا يستطيع ان يحمل المحل على ظهره كما كان يفعل بالكشة فيجرب حظه في هذه القرية وتلك

ولكن المطامح في الناس تفتح بصائرهم مهما تكن كميات ادمغتهم فبعد ان افتكر المذكور طويلا توصل الى راي اصيل وفي الحال صفى شغله وباع كشته كلهـا وابقى من خرضواتها اشياء تستعمل في الوطن كالامشاط والقناني الطيبة والخواتم والحلى الزائفة وما شاكل برسم هدايا لذويه في الضيعة وبعد ايام ركب البحر عائدا الى اهله بما بقي معه من المال متوكلا على الله

ووصل مصطفى الى ضيعته فخف كل سكانها من

العجائز والشيوخ الى الاطفال بالتمائم للسلام على العائد الغني. ولا تسل كم كان معظم ذهول القوم من الثروة التي عاد بها الى اهله فان اصابعه العشرة التي كانت ملبسة بالخواتم والدبوس الكبير في ربطته والازرار الصفراء في كمي قميصه والهدايا التي اتى بها الى امراته وشقيقاته وكلها من الجواهر وما اهداه من الاجواخ والسلع الصغيرة الى اقربائه وجيرانه. كل هذه كانت تنطق لهم بصوت عريض أن مصطفى الشاهين صار لا يشق له غبار. وصار الشيوخ يندبون سوء حظوظهم لان الشباب مضى قبل ان يعرفوا باميركا وصار الشبان يتقربون اليه ليدرسوا عليه احوال اميركا وكيفية السفر اليها وكم تكلف السفرة الى ما هنالك. الا ان مصطفى القادم بمهمة تجارية لقريته راى في انشغاف القوم به سبيلا الى الوصول لغرضه فما مضى اسبوع واحد على وصول ابن الضيعة اليها من اميركا حتى ودت بما فيها من تراب ان تسير معه الى اميركا وهكذا بعد منتهى شهر عاد مصطفى الى اميركا قائدا لجيش يبلغ عشرة شبان وعلى نفقته ليفتح تجارة اميركا ويصل الى مرماه الذي طالما فكر به وتمنى الوصول اليه

على الطريق الطويل عانى مصطفى بعض العناء بحملته التجارية ولكنه بالرغم من ذلك العناء الكثير كان يسر

بداخله اذ يرى حوله رجالا سيبني عليهم مستقبله المجيد وهم يرون فيه القائد البطل الذي سيصل بهم الى عالم المجد والعز

ولم يقتصر عناوءه بهم على جلبهم فانه عندما وصل بهم الى القرية التي صمم ان يبني محله فيها كاد يتمزق في تدريبهم على حمل الكشات وتعليمهم بعض العبارات الضرورية باللغة الانكليزية قدر ما هو نفسه يعرف من اللغة التي اختطف لفظها خطفا وصار يفك حاله بها كما يقول

وهونها الله على مصطفى فالمحل الذي فكر به انشىء وجعل ذا قسمين قسم داخلي ينام ويطبخ ويا كل ويستقبل ضيوفه فيه وقسم خارجي فيه رفوف عليها السلع والعلب وفي ارضه قوائم خشبية عليها مساطر البضائع

السنة الاولى مضت على التاسيس وتدريب الجيش للغزو وفي السنة الثانية استغل مصطفى شيئا يذكر من الارباح فارسل منها كمية الى قريته لجلب امراته الى اميركا٠ وفي السنة الثالثة ابتدا يشاحن جيشه الذي صار اعضاوءه العشرة يشارعونه على الاسعار لانهم صاروا على شيء من الخبرة في المسواق وتوسعت مداركهم بفضل التنقل من بلد الى اخر فصاروا يميلون الى التمرد عليه

ويتامرون بين بعضهم البعض على مقاطعته لولا انه كان يستعمل الحيل في اقناعهم فصار يلاطفهم ويدعوهم يوم الاحد الى مائدته ويكسب قلوبهم عن طريق المجاملة والنسابة

مضت هذه السنوات واشغال المحل تزداد وارباحه تتضاعف ولكن صاحبه كان يلعن حظه لان الامور لم تات على حسابه فان الامر والنهي لم يعودا من وظائفه على فئة الزبائن الجلب

عرفته في تلك السنوات وقد كنت ازور تلك القرية احيانا فاميل الى محله لاساله عن حاله واحادثه قليلا بينا اكون اترقب مجيء القطار

الا اني لتغيرات تجارية اذ تركت المحل الذي كنت امثله ولصقت بغيره لجهة اخرى من البلاد لم اعد اسمع شيئا عن مصطفى الشاهين ولكني كنت اصوره في عقلي فاقول قد مضى علي خمس سنوات لم اره فيها فيجب ان يكون اليوم شيخ البلد لان شغله ماشي وزبائنه من عظام الرقبة ونفقاته في السنة من ارباح شهر

في عام ١٩٠٦ طرحتني الاسفار الى تلك القرية صدفة ولما وصلتها سرت في الحال لمشاهدة ذلك الرجل الذي تعرفت عليه لمجرد انه يتكلم اللغة التي اتكلمها وهي لغة

كلينا وشد ما كان دهشي عندما رايت صاحبي في غير المحل الذي كان له• رايتـــه عند باب بيت حقير قرب محله الاول وحوله اولاد المدرسة من صبيان وبنات يبيعهم «ايس كريم» على «كون» بسنت كل واحدة• ولما سمعت جرس المدرسة يدق ترك الاولاد احاطتهم بمصطفى راكضين الى المدرسة فتقدمت اليه وسلمت عليه فسر كثيرا لمشاهدتي بعد غياب طويل تضمن حوداث كثيرة وقعت على ذلك المسكين

ثم رايته قد احتمل القدر الذي كان يبيع منه داعيا اياي ان ادخل معه الى المنزل لان وقت الشغل قد مضى فدخلت لاعرف شيئا عما خفي علي من حاله

وسالته كيف احوالك يا مصطفى يظهر انالامور تغيرت معك

فاجابني بتنهد عميق ولم يشا ان يتلفظ ولكنه قادني الى غرفة صغيرة حيال الغرفةالتي كنا فيهاوقال لي انظر تامل

رايت على الحيطان عشرة رسوم لعشرة اشخاص وتحت كل رسم اسمه فاقتربت من كل الرسوم لاقرا الاسماء فاذا بها هكذا ــ ابو الالف• ابو الخمس مئة• ابو الست مئة وهكذا قرات ارقاما لاسماء تسعة من ذوي الرسوم اما العاشر فتحته كتب هذا الاسم ــ ابو حواء•

فقلت والضحك كاد يغلبني ولكن ماذا تعني بهــذه الارقام فاجابني كل رسم دعوته بالكمية التي نصب علي بها ورحل الى جهة لا اعلمها٠ قلت ومن هو هذا ابو حواء

فاجاب هو الذي خطف المراة في الاخر بعدما تواطات معه على سرقة المحل الذي اقفلته الحكومــة واشهرت افلاسي

قلت فاذن انت خسرت كل شيء يا مصطفى؟ فاجابني نعم خسرت كل شيء واكثر من ذلك خسرت شيئا لا تراه انت٠ فقلت وما هو؟ اجاب وقد كدت ابكي لحالهــ ثقتي في الجبلة البشرية!

مدنية الاميركان

مدنية الاميركان

لما غادر ابو راجي فلفل سوريا قاصدا اميركا وطن النفس على ان لا يعود اليها فباع كل ما كان له من عقار واثاث وحمل عائلته المؤلفة من ام راجي وولدين الى بلاد الناس.

وبلاد الناس عند امثال ابي راجي هي اميركا فان سوريا ليست ببلاد الناس عندهم لان اميركا ذات الحرية والغنى واما بلادهم فبلاد الذل والخمول.

وهكذا كان فابو راجي ودع البلاد الى بلاد الناس غير اسف على هجره الوطن معللا نفسه بالامال وطالبا الوصول الى اميركا ليندمج بين شعبها المتمدن اما شعب سوريا فلم يكن بنظر ابي راجي الا كما ذكرنا ذليلا خاملا فلا الوطن ولا آله ولا تاريخه او تاريخهم مما يملك ولو ذرة من اعتباره وحبه.

ولكنه ما كاد يصل الى نيويرك ويقطع شهرا واحدا حتى انقلبت الاية معه فصارت اميركا عنده عبدا اسود ومدنيتها في نظره دون مقام البربرية الافريقية وشعبها اقل شعوب الارض ذوقا وذكاء.

والسبب في ذلك انه لم ير في نيويرك ما راق لخاطره وما انطبق على ذوقه وعاداته او وافق ما تصوره قبلا باميركا

فانه سكن لدى وصوله بيتا لا تدخله الشمس مرة في السنة وصدف انه في الشهر الاول لوصوله الى نيويرك كان الطقس رديئا جدا فلم تنقطع خيوط المطر يوما واحدا ولهذا انقبضت نفسه وصار بغضه لاميركا يزداد سريعا يوما عن يوم وقد ادمى اصابعه ندما ولكن لات حين ندامة·

كل شيء راه في اميركا لم يعجبه حتى اقاربه لم يستانس بقربهم فكان كلما تطلع الى احدهم وراه حليق الشاربين ينفر عن محادثته ويانف من النظر في وجهه· واذا بالصدفة بدرت من احدهم كلمة انكليزية كان ابو راجي يهينه ويغلظ له بالكلام ظنا منه ان ذلك المخطىء اراد الهزء به لانه لا يعرف حرفا من اللغة الانكليزية·

وقد حدث لابي راجي شوءون كثيرة ادت الى كرهه الكثير لاميركا وصارت بلاده عنده انئذ بلاد الناس واما بلاد اميركا فليست سوى بلاد البقر·

ومن تلك الحوادث انه كان يوما مادا بساطه على رصيف سلم الحريق في بيته وهو جالس الاربعاء وفي فيه نربيج الاركيلة يشرق دخانها وينفخه بينما كانت افكاره سائحة في الفضاء لا تستقر بمكان وفيما هو على هذه الحال اذا بصوت من الشباك الذي دخل منه الى الرصيف فانقطع في الحال عن افتكاره وتطلع الى الشباك فرى بوليسا رافعا

عصاه يتهدده بالضرب فهب لساعته وحمل اركيلته ودخل بها الى بيته فامسك به البوليس وهزه هزات متتابعة طيرت راس الاركيلة الى الارض وهو لا يفهم من كلام البوليس كلمة وقد ظن بادىء بدء ان البوليس غلطان به فهو لم يات امرا فريا ولكن لا حيلة له لاقناع البوليس ببراءته لجهله اللغة. عندئذ دخل عليهما بعض السوريين فافهموا البوليس ان ابا راجي رجل بسيط مسكين وقد جاء حديثا من البلاد وهو يجهل نظام المعيشة فخرج البوليس بعد ان لان قلبه على ابي راجي وتركه وشانه. اما ابو راجي فاخذته الحيرة كل ماخذ وبعد ما خرج البوليس انهال عليه بالمسبات والتجديفات متحيرا بما صار اليه غير عارف بذنبه الا ان السوريين الذين تبعوا البوليس اخبروه ان جمرة الاركيلة سقطت من بين قضبان الحديد على راس البوليس.

ثم ان ابا راجي ذهب يوما الى «كاسل غاردن» الحديقة عند البحر القريبة من شارع واشنطون وقد حمل معه غذاءه فدخل الى الحديقة ماشيا على الكلاء حتى وصل الى شجرة فجلس تحتها يأكل غذاءه واذا بالحارس قد جاء نحوه مهرولا واخرجه من الحديقة بالدفع واللبط وبقي طعام المسكين هناك فاضطر ان يعود الى بيته ليأكل ولكنه كان اكلا مخلوطا بسم الموت لان التاثير بلغ مبلغا عظيما في نفسه

ومرة اخذه بعض الجيران يوم احد الى حديقة برونكس ليتفرجوا على الحيوانات وقد اعجبه منظرها ودهش لجمال البنايات التي جعلت منازل الحيونات القذرة مع انه وهو من بني ادم يسكن بيتا دون منزل الخنزير في تلك الحديقة ولكن الحظ لم يكتمل معه فانه بينما كان يتامل بمنظر الفيل وخرطومه وقد دهش لهما رمى الى الفيل بقطعة خبز كانت في جيبه فراه الحارس فقبض عليه ولم ينته الامر حتى دفع رفاقه عنه الجزاء النقدي ولا تسل عما خرج من فم ابي راجي بعد ذلك٠

وفي الاحد التالي لهذه الحادثة اخذوا ابا راجي الى المتحف حيث تعرض للاشياء الثمينة والرسوم الفنية فكانهم اخذوه ليتفرج على فخامة البناء والجنينة المحيطة بالبنايات اما ما حوته تلك البنايات من الاثار فلم يرق لخاطره ولا عجب فانه لا يعلم شيئا عن الفنون ولما اخبره احد رفاقه ان ثمن صورة من الصور المعلقة للفرجة قد يبلغ عشرات الوف الريالات هز ابو راجي راسه واقسم ايمانا مغلظة انه لا يشتريها بخمسة سنوت وقد ضحك على عقول الاميركان ورماهم بالسخافة وعيرهم بالبلاهة وخفة العقل٠ وكان اصحابه اعجبهم نظره الى الأمور التي لا يحدها عقله فارادوا مداعبته فصاروا يناظرونه بالامر ويبالغون باهمية الرسوم

وهو يكيل لقلة مدارك الاميركان الذين «ينفقعون» لتوافه الاشياء وفيما هو يهزا ويسمع ويجيب في وقت واحد كانت يمناه قد دخلت الى جيبه فاخرجت علبة التبغ ودون ان يلاحظ بفكره ما تفعله يداه لف سيكارة ووضعها بفيه ودخلت يسراه الى الجيب الثاني فاخرجت عود كبريت وهو لا يزال في حديثه مع اصحابه هم يشدون عليه وهو يضحك على الاميركان ودون ان يلاحظ احدهم ما هم ان يفعل ابوراجي لانهم انبسطوا بحديثه المفكه كانت يمناه قد اخذت من شقيقتها عود الكبريت وامتدت الى الحائط المدهون بالدهان الفني البديع فاضافت الى تفنن الرسامين بالدهان خطا احمر في منتصف الحائط يبلغ طوله الذراعين وما كاد يشعل ابو راجي سيكارته من ذلك العود حتى ثاب اصحابه الى رشدهم فراوا ما كان منه فسحبوه في الحال وقلوبهم هالعة الى الخارج ولم يشفوا قلبه بان يخبروه عما صار خوفا من ان يعرف امرهم بل اسرعوا عائدين الى القطار ليعودوا الى بيوتهم.

هذه بعض الشؤون التي حدثت لابي راجي في اميركا وهي التي طبعت في دماغه ان سكان اميركا بالرغم من لبسهم البرنيطة والافرنجي وكلامهم باللغة الانكليزية ليسوا على شيء من التمدن والذكاء وان بلادنا مع ما فيها من

الخلل بالامن وقلة الحركة اكثر تمدنا واهلها اعظم ذكاء من كل شعوب الارض. وبناء على هذا لم يقطع ابوراجي ثلاث سنوات حتى عاد بعائلته الى قريته في لبنان حيث طهر عقله وصفى افكاره من امانيه في الهجرة والاندماج في الشعوب المتمدنة الغربية.

وبعد سنة من عودة ابي راجي الى وطنه عاد احد مواطنيه من اميركا وقد كان من جملة الاصحاب الذين اخذوه الى المتحف في نيويرك ولما رد لابي راجي السلام في منزله دخل الى البيت دائسا على السجادة دون ان يخلع من رجليه عند العتبة فكانت عينا ابي راجي كل الوقت مصوبة النظر الى رجلي الضيف وقد حاول ان يكتم سره ما استطاع ولكنه اخيرا فضح الامر فقال لضيفه بلطف ان عادة عدم نزع الاحذية في اميركا دارجة ولكن في بلادنا لم تدرج لان الاحذية توسخ السجاد. فاجابه الضيف: نعم الحق معك ولكن السجادة تستطيع انت ان تنظفها بالمكنسة امبغيرها ولا يكلفك امر تنظيفها الا صرف دقيقة وبعض العناء ولكنك على ما يلوح لي نسيت ذلك الخط الذي طبعته على حائط من حيطان المتحف الفني في نيويورك اذ شحطت على ذلك الحائط ذلك الخط الهائل بعود الكبريت لتشعل سيكارتك . اولا تظن ان محو اثر ذلك الخط قد كلف

ارباب المتحف اكثرمن ثمن سجادتك ؟

اما ابو راجي فاجاب وفي جوابه بعض الازدراء وقال:

«نعم في اميركا كل شيء يكلف ولولا العيب والحياء لتقاضوا بعضهم ثمن الهواء ولقد كلفني ان اتفرج على قلة عقولهم واعود، بيتي القديم والحاكورة والاثاث ولكن الحمد لله تفرجنا على اشياء كثيرة تسمى مدنية الاميركان ويا لها من مدنية!»

احاديث الغرام

احاديث الغرام

اذا غاب عنك سعيد علام نصف ساعة فقط فانه يخبرك في الاقل عن حادثتين وقعتا معه في اثناء ذلك النصف من الساعة ولك الخيار بان تصدق ما يقول او لا تصدق الا انه ولا فرق عنده تصديقك لروايته او عدمه يخبرك بانه اذ كان سائرا في الشارع الفلاني قاصدا المحل الفلاني وقعت عينه على بنت لا احلى ولا اجمل منها عيناها تذبحان وخداها يحرقان وقدها يقد ونهدها يهد ولم يكد يقع البصر على البصر حتى رشقته بغمزة من طرف عينها اليمنى فرفع قبعته بيده اليسرى وحياها وعقد معها موعدا للاجتماع في اليوم الفلاني الساعة الثامنة مساء مطرا كان ام صحوا

هذه حادثة اولى من حوادثه مثلا واما الثانية فهي انه اذ كان راجعا من المحل الذي قصده وهو مسرع الخطى لا يرغب في ان يتطلع الى اي بنت كانت ولو انها نازلة من السماء فجاة نطح اثناء سيره بشخص ولما تطلع اليه ليعتذر اذا به فتاة كتب الجمال على جبينها ايته الاولى والاخيرة فاضطر ان يعتذر اليها بكلام لطيف وانتهى الحال معه انها الغزت له بانها لا تمانع بمرافقته لها الى منزلها فاضطر ان يرافقها ولما وصل الى سلم المنزل ودعها واعطاها

اسمه وعنوانه واخذ اسمها وعنوانها وتعاهدا على المكاتبة والزيارات ويختم كلامه بقوله «بين مالي وكاتي ضاعت اوقاتي!»

ولسعيد علام مخترعات عديدة في تاليف هذه الحوادث حتى انه ليخيل لمن يصاحبه ان الشاب خلق خصيصا ليكون مطمحا لامال كل فتاة فاذا جلس في محضر لا ينفك يخبر السامعين هذه القصة التي حدثت له مع بنت كادت تجن بحبه وتلك القصة التي حدثت له مع البنت الفلانية وما كان من امرها حتى يدهش ويحير الالباب . وللمذكور مقدرة غريبة على الابتداع فانه يكيف القصص ويكثر عليها البهارات اللفظية والمقبلات الوصفية حتى انه بالرغم من شك السامع كلامه بصدق روايته لا يمل من سماعها بل يعجب اذا كان حقيقة وقع لسعيد علام كل هذا المسموع منه.

وان الانسان ليدهش من مروياته عن الشباك الحبية التي يقع بها وينصبها هو بنفسه لبنات ميركا. فيقول السامع بنفسه عجبا يحدث كل هذا لهذا الشاب وليس فيه من الميزات عن غيره لا بالخلق ولا بالاخلاق ولا بالعلم ولا بالمال ولا بالنباهة ولا باللغة فاذا كان صادقا بكل ما يرويه لا مراء بان الاميركيات بلا عقول او ان عقولهن ترللي

حكى لي صديق ان سعيد علام كان دائما يطحله باحاديثه

عن مواعيده مع البنات الامريكيات وعن الصدف المدهشة التي تشبكه معهن دون قصد بل غصبا عنه فقال ـــ

«كنت دائما افكر بحياة ذلك الشاب فاقلبه بفكري مفترضا انه صادق بكل ما يحدثه فماذا يا ترى يجعله مرغوبا محبوبا بقلوب البنات بل لماذا يا ترى لا يجري لي ولو حادثة من الوف جرت له وانا اجمل منه وانظف لباساوا كثر غلبة واطلى حديثا. فصممت النية اخيرا على ان اكتشف بنفسي صحة احاديثه وصرت اترقب الفرص لاماشيه يوما كاملا في قلب المدينة ذهابا وايابا وادخل معه كل مجتمع يكثر فيه عدد البنات وكل حانة راقصة او ما شاكل لارى بام عيني كيف يضع الجنس اللطيف شباكه من كل حدب وصوب لاقتناص قلب ذلك الشاب الغريب.

قال الصديق ـــ وجاءني الدهر بيوم طالما اشتهينه اذ رضي معي سعيد علام بالذهاب الى «سنترال بارك» بعد الجهد والالحاح الشديد لان سعيدا حاول التملص مني بداعي ان معه موعدا قبل الظهر واخر بعد الظهر وغيره مساء.. وهونها الله فاقنعته بالذهاب معي الى تلك الحديقة فلا بد ان نقضي النهار بمغازلة حسناوات تعوض عليه ما كسره من المواعيد لاجلي. ودخلنا قطار النفق سوية وما كدنا نجلس في عربة ملانة المقاعد ولحسن الحظ كان كل الصف

الذي إمامنا سيدات حتى رايت بام عيني مـا اعجبني وادهشني وجعلني لاول وهلة اقول والله اذن سعيد كان صادقا بكل ما رواه للناس من حوادثه الغريبة مع بنات نيويرك. فقد شاهدت الابتسامات على افواه السيدات امامنا وعيونهن ترمقه وبعضها تغمزه وهو يذبل عينيه ويتمتم لي قائلا «الا ترى اني صرت تعبا من هذه الحياة فانظر الان امامك واعذرني مرة ثانية اذا كنت امتنع عن الذهاب معك ومع غيرك الى المتنزهات او المجتمعات»

اما انا — يقول الصديق الراوي — فقد بهت وصار قلبي يرقص وقلت في نفسي سبحان الخالق انه يخلق في الارواح جاذبية لا تدل عليها المظاهر الخارجية! وكنت انظر الى الناس الجلوس مستغربا تهافت ابصارهم الى رفيقي سعيد علام وكدت اشفق عليه لما يعانيه من رميات العيون الغوامز ورشقات الافواه البواسم لولا ان انتصب امامنا رجل كهل شبك يده بالحلقة التي يتعلق بها الواقفون وانحنى الى صديقي لناحيتي فقال له ان رجل بنطلونه عالقة بضمامة جرابته وطلب اليه ان ينزلها منعا للتشويش الذي يحدثه.

وقال الصديق ايضا — فتطلعت الى سعيد عــلام فاذا بوجهه ممتلىء دما والخجل ملبس اياه وشاحا وقد اقتصرنا النزهة على الوصول الى الحديقة حيث افترقنا فسار هو من جهة وانا من جهة. وصرت اذا اجتمعت به مرة بعد مرة

اهز يده مذكرا اياه بتلك النكتة التي جرت له بحضرتي فاضحك كثيرا ويبسم قليلا واحسن من هذا اني صرت اذا فاجاته في محضر من الاصحاب يحدثهم باموره وغرائبها يحول الحديث في الحال من صورة الى صورة»

لافرق بين الاثنتين

لا فرق بين الاثنتين

تلك كانت الزوجة الخامسة لبدر مشرق وقد تزوج بها وهو ابن اربعين اما نساوءه الاربع الاوليات فقد طلقهن واحدة واحدة وانتهى امره بتزوجه الخامسة التي انتخبها لنفسه وهي اميركية تقابله عمراً ارملة لها ابنة من زوجها الاول

بعد شهرين من زواجه الخامس صرح بدر مشرق امام معارفه ان الزوجة الاميركية افضل من السورية واقسم يمينا قاطعا ما عاد يتزوج في حياته سورية لان الاميركيات افضل للحياة البيتية واكثر تهذيبا واحسن ترتيبا.

عندما اقسم ذلك القسم القاطع لم يظهر على وجهه اشارة الى انه يريد الهزل بل لفظه كانه مجزم بصحة الامر يعني ما يقول فهو لقد عقد النية على ان لا يتزوج بامراة سورية بعد هذه الاميركية التي راى منها ومن ذوقها وتهذيبها ما لم يره من السوريات الاربع اللواتي كن فيما سبق زوجات لحضرته.

في هذه المرة صار بدر لا يعنيه شيء من امور نظام البيت الا انه يدفع في اخر الاسبوع المبلغ المعين عليه من المال لقضاء الحاجات من دين السمان واجرة البيت وقسط الاثاث الى ما شاكل. اما يوم كان زوجا لاحدى السوريات فقد

كان يعتل السمانة من محال السوريين الى البيت فلا يصل الا وصبره قد جاوز الحدود والسباب والشتائم والتجديفات تخرج من فيه كقنابل المدافع في حومة الوغى.

وصار على عهد الاميركية لا يحمل صرة برغل ولا لحم ضان ولا علبة بندورة ولا سلة عنب لان الاميركية تطلب كل هذه بالتلفون فياتي الغلام بطلباته كمارد سليمان الحكيم.

الفرق عظيم بين الزوجة السورية والزوجة الاميركية خاصة عنده في اول عهد زواجه الخامس، السورية اذا ارادت شك الابرة تسال زوجها ان يشكها لها. تحتار بامرها في ما عساها تطبخ العشاء فالبارحة كان العشاء كبة وقبله كان كوسى محشيا وقبله كان مجدره واليوم ماذا؟ تساله رايه قبل ان يذهب الى شغله ماذا تريد ان اطبخ لك؟ فماذا يجيب؟ يجيبها قائلا: سم الموت ويخرج من البيت عابسا.

اما الاميركية فلا تساله ولا تستشيره ولا تطلب منه شيئا سوى دفع الثمن وتودعه الى شغله بقبلة وتلاقيه عند الباب عائدا الى البيت باخرى وتجلس الى جانبه تقرا معه الجرائد فتحادثه بامور كثيرة تخوض عبابها عاملة فكرها وناظرة بكل حادثة وبكل موضوع. واذا تكلمت معه تنهي عبارتها له يا عزيزي ويا حبيبي ويا عسلي بكل هدوء وكل نظام.

العشاء يحضر على المائدة الساعة السادسة من كل مساء

وكل شيء يلزم لمناولة الطعام حاضر بينا السورية تعلل زوجها بقولها ان اللحمة لم تنضج بعد فتدق الساعة السابعة والنصف والزوج يتقلب على مقالي الانتظار بمعدة فارغة بعد تعبه كل النهار بالشغل ثم لما ينضج الطعام ويجلس مع زوجته للاكل لا تلبث ان تنهض لتاتي بالخبز لاعنة الشيطان كيف انها نسيته ولا تكاد تستوي في كرسيها حتى تنهض ثانية لتاتي بالملح والفلفل وثالثة لتحضر الفوطة وتنهال مرة ثانية باللعنات على الشيطان لان العجلة منه فلا ينتهي العشاء الا بعد عناء وتلبك كثيرين٠

كل هذه الفروق كان يلاحظها بدر فيشكر الله انه خلصه من بلادة السوريات وهدف اليه اميركية تريح باله من كل هذه الامور فليس عليه الا الاجتهاد وتحضير المال للمعيشة واما امراته فعندها كل شيء اذا حضر المال٠

كان لبدر صديق سوري ذكي الفؤاد مختمرا بالعبر وصروف الدهر وتقلبات الايام وقد التقى مرة به فاخبره بدر بكل شعوره وراحة باله فسمع منه صديقه كل بحثه عن الفرق العظيم بين الزوجة السورية واختها الاميركية ولكنه اخيرا قال له وكان ذلك في عام ١٩٠٢ :«ان موضوعك جليل الفائدة وفيه حقائق كثيرة ولا استطيع ان ابحث معك فيه طالما اختبرت الامر بنفسك فتوصلت الى معرفة الفرق

بين السورية والاميركية ولكن كم صار لك مع الزوجة الاميركية؟»

فاجابه بان صار له نحو سنة· عندئذ هز صديقه راسه ماسكا طرف قبة سترته ماطابوزه قليلاثم تمتم هذه الكلمات «ولكن لم تزل يا صديق في شهر العسل!»

في سنة ١٩١٠ كان الناس يتناولون الجرائد ليقراوا ماذا كان من امر المحاكمة في الدعوى التي رفعتها مدام بدر مشرق على زوجها بدر وقد انقضى عليها نحو سنتين تنتقل من محكمة الى اخرى والمحامون من الطرفين يوما يتفاوضون واخر يتنازلون في المحاكم حتى صدر الحكم النهائي بطلاق مسز مشرق من مستر بدر مشرق وبتعين راتب شهري يدفعه المستر للمسز في راس كل شهر لاعالتها وبان يكون المنزل بما فيه من اثاث خاصتها·

اما الدعوى المذكورة فقد كانت مبنية على ان المستر مشرق كان يهمل زوجته ويعطي اكثر انتباهه لابنتها فيجالسها ويلاطفها في حين ان زوجته تكون منهمكة بامور البيت وانه كان يزجرها ويغلظ كلامه لها وقد فتر حبه من يوم صارت ابنتها صبية وانه مضى عليهما العام الاخير ولم يقبلها فيه قبلة من تلقاء نفسه الا بعد صياح وشجار وانه كان يقضي الليلة والليلتين خارج البيت في حين كانت تحيي

الليالي ساهرة مترقبة رجوعه الى بيته٠

وفي اواخر عام ١٩١٠ ارتاح بدر مشرق من الراتب الشهري لزوجته المطلقة الذي اعياه واثقل ظهره لان مسز مشرق غيرت اسمها وشلحت اسم مشرق كما تشلح الشجرة ورقاتها في فصل الخريف وغيرته باسم سلفان وهذه كنية زوج جديد من لحمها ودمها٠ وقد تنفس بدر الصعداء عند ما بلغه ان الراتب المعين عليه إنتهى امده٠

في سنة ١٩١٣ كان بدر قد صار كهلا قريبا من الشيخوخة وقد احنت الايام ظهره وافقدت نشاطه فصار ميالا الى اللهو ولولا الحاجة لما اعار شغله اقل انتباه٠ في تلك السنة دخلت الى محله امراة كهلة وبعد ان حادثته قليلا عن شغل قالت له:

«انت بحاجة يا مستر بدر الى شريكة لحياتك تعتني بامور بيتك بينما انت تدير اشغالك في هذا المحل»

اما هو فاجابها وقال: لقد شعرت بهذا منذ سنين فراح البيت مع المراة والان ليس لي الا بضع سنوات في هذا العمر واظن هذا المحل يقيني الحاجة والسوءال اذا حافظت عليه٠

فاجابته انه اذا اراد المحافظة على شغله يجب ان يكون باله مرتاحا بامور معيشته ولا يرتاح الا اذا دبر لنفسه بنت

حلال كما فعل ابن اخيها وقد كان شابا جبارا تهتز الارض من وقع خطواته فلما تزوج صار شابا لطيفا وعين الله ترعاه

فقال بدر: «كنت مثله واكثر ولسوف يصير مثلي وانحس

وفيما هو يتكلم واذ دخل عليه صديقه الذي قال له انه لم يزل في ذلك الحين بشهر العسل فسلم عليه بعد طول غياب وعندما ساله عن المدام التي راى منها ما لم يره من زوجاته السوريات اخبره بما جرى عليه وانه صار يعتقد بعدها بان لا فرق بين المراتين السورية والاميركية وانه في حياته ما عاد يفتكر لا بسورية ولا باميركية فاجابه صديقه اذا كان الزواج عندك طلق المراة وتزوج باخرى فان كان من فارق بينهما او لم يكن لا فرق عندك.

الله يسعده ويبعده

الله يسعده ويبعده

لم يكن من يستطيع فهم اصل الخلاف بين ابرهيم الصالح واخيه فريد وقد بدا الخلاف بينهما في اول اسبوع وصل فيه الصغير الى هذه البلاد . وبعد ان كان ابرهيم يستعد لاستئجار نزل خصوصي يشتري له اثاثا جميلا ليعيش مع اخيه فريد كعائلة صغيرة لبث في غرفته المفروشة وطرد اخاه من عنده فاضطر المسكين وهو دون السابعة عشرة الى ان يستاجر غرفة له ذرية جدا وان يعمل كاجير في محل تجاري ليعيش مستقلا

حكى لي فريد الصغير عن خلافه مع اخيه فقال انه لا يعلم لماذا كرهه اخوه ولم ياثم امامه ولا اخل باعتباره كاخيه الاكبر وولي نعمته ولكنه لسبب بسيط جدا ارتاى ابرهيم ان يفترقا وان يعيش كل منهما لنفسه وقد منعت اجتماعاتهما معا الا اذا كانا وحدهما واذ ذاك يستعمل ابرهيم سلطته على اخيه فيامره امرا وينفض سترته باصابعه علامة انه هكذا يريده ان يعمل واذا ابى فلا يكون مسوءولا

ان خلاف الاخوين على هذه الصورة امر غريب جدا فليس بينهما من خطا ارتكبه احدهما ضد الاخر ولا بينهما ما لا يمحى على ان الاثنين ناجحان باشغالهما وابرهيم رجل

يبلغ الخامسة والثلاثين وقد صار له نحو عشرين سنة يعمل في اميركا ولما انهى فريد المدرسة الابتدائية استقدمه اليه على امل ان يفتحا محلا تجاريا يكون فيه رئيسا واخوه مدبرا الا ان الامور انتهت بالجفاء بين الاثنين في اول اسبوع لوصول فريد الى اميركا

اما فريد فشاب ذكي له المام بالعلوم وولع بالمطالعة قليل الكلام ولكنه رصين لايتكلم الا اللازم الذي يفيد عكس اخيه الاكبر فانه كثير الكلام كثير الدعوى يتدخل في كل موضوع ويحشر نفسه في كل مشكل وقد ولع ايضا بالمطالعة الصحفية والكتبية وانما ولعا سطحيا فكان يحفظ اسماء اعاظم الرجال من سياسيين وعلماء وفلاسفة وشعراء فاذا نكلم في اجتماع يكثر من ذكر تلك الاسماء فينظر الناس اليه كرجل عليم في صدره كنوز علم وعرفان فاذا كان الحديث عن السياسة اسرع فذكر بسمارك وغلادستون وقال فلان قال كذاوكذا ومن اطلع على ما كتبه اوقاله بسمارك اوغلادستون ليكذبه؟ واذا كان الحديث عن الشعر ذكر في الحال المتنبي وابا العلاء مع بعض ابيات لكليهما يقولها باللفظ المكسر ثم يعمق بتاريخ الشعر فيذكر هوميروس ويتدرج بالاسماء الى هيكو وموسيه ووووو.. حتى يسكت الحاضرون ويعطوه موقف الكلام ولا يعدم ان

يرى منهم اعجابا بسعة معارفه ووفرة علومه حتى صار عندهم مرجعا لكل امر ومضرب المثل في العلم بكل باب من ابوابه

ودام هذا معه حتى وصل فريد الى نيويورك فصار يحضر مع اخيه بعض الاجتماعات ويراه راكبا مركب الشطط باكثر احاديثه فكان يسكت اولا حياء منه ولكنه بعد ان استانس صار يعترض على غلط اخيه ويصلحه فكان ابرهيم يحرق الارم غيظا ويلعن الساعة التي وصل فيها اخوه لينزع عنه مقامه كعالم بين الناس

ومرة كان الاخوان في سهرة حافلة وكان الفونغراف يشنف اسماع الحاضرين والكوءوس دائرة عليهم واخر اسطوانة سمعوها فذهبوا بسحرها كانت اسطوانة للصلبان فيها «يا ليل الصب...» فكان بعضهم يعيدها ويعيدها ويساعده غناء بها واستشهادا بمعاني ابياتها الجميلة حتى وقف عند «رقد السمار وارقه» فقال في القوم من هذا السمار؟

فاجاب احدهم وقال« اظن ان السمار هو الذي يدق المسامير»

فضحك الكل من جوابه

وقال ثان «اظن السمار هو الهر اي السنور لا بل السنمار»

وقال ثالث «لا بل هو السمرمر الذي يطارد الجراد»

واختلف القوم على معنى الكمة وابرهيم الصالح يتنحنح

وقد غاب عن الحضور بفكره ليأتي لهم بمعنى الكلمة فيكون كلامه فصل الخطاب · واما اخوه الصغير فريد فكان الحال عنده كالتياترو فما كان يهدا من الضحك بكل ما استطاع شدقاه وبكل ما في رئتيه من القوة

واخيرا صاح صائح وقال «عندنا ابرهيم الصالح ونتجاسر على تفسير الكلمة فلنسمعه الان يحل لنا المشكل»

وسكت الحاضرون ووقف الفونغراف وصاروا كلهم اذانا صاغية مستعدة للسماع وعيونهم مصوبة على نقطة واحدة هي وجه ابرهيم الصالح

عندئذ لم يعد لابرهيم من مهرب فعار عليه ان لا يحل مشكلة صغيرة كهذه وهو لم يعودهم ذلك ففتح اولا فمه ببطء كلي وعيناه محملقتان ووجهه يتطاول وكان بطرف نظره يحدج اخاه فريدا لهذا تعلثم قليلا ولما تحنن الله على صبر القوم خرجت من فمه كلمة «اظن» خمس مرات وبين كل مرة واخرى فرصة دقيقتين حتى اخيرا افاض بحل المشكل طارحا عنه التردد المصنع وقال «ان السمار هو السامري عنول اليهودي ويظهر ان قائل تلك الابيات يهودي فيكون المعنى ان العدو نام وهو لم ينم بل ارقه الالم»

ويظهر ان فريدا نسي ان اخاه الاكبر كان المتكلم ولهذا استعان بكل ما في قدرته على الضحك حين كان الكل

صامتين على وجوههم سيماء الرصانة يتوقعون القول الفصل من رب العرفان عندهم وهذا ما دعا ابرهيم ان يستشيط غيظا من اخيه فشتمه ولولا حرمة الناس لكان ضربه فانتبه فريد لامره وعقب ضحكاته الطويلة عبوسة فجائية فاستصفح اخاه واقر بانه مخطئ وانه نسي نفسه لتفاسير القوم كلمة «سمار» البعيدة عن الصواب

عندئذ قال له اخوه «انت يا فريد مثل كل ولد ياتي من سوريا مملوء دعوى ولا تحترم معارف الاخرين بل تظن ان ما تلقنته في المدرسة هو كل العلم مع انه ينقصك تهذيب كثير. والان «يا عيب الشوم» دعوتنا نخجل امام الناس فقم بنا قم»

وقد الح الحاضرون على ابرهيم ان يعدل عن فكره بالرحيل وان يهدئ روعه قليلا فان اخاه سيتعلم فيما بعد فيحسن سلوكه ويعرف كيف يجالس الناس

وكان احد الحاضرين الذين فسروا الكلمة شديد الاستياء من جواب فريد لاخيه بان تفاسير القوم اضحكته فخاطبه بملء الاشمئزاز قائلا «وهل عندك تفسير احسن اي نعم نحن لم نتعلم في المدارس مثلك ولكن لا اظن ان كلامنا يوجب ضحك الناس الا اذا كان ضحكك بلا سبب والضحك بلا سبب من قلة الادب

هنا تبدلت هياة فريد الصغير فقال بصوت لطيف والحيرة اخذة منه ماخذا «اعذروني يا اخوان على ما بدر مني فانا لم اقصد بضحكي الحط من كرامة الذين فسروا كلمة «سمار» بل ان تفاسيرهم جعلتني اضحك لاننا في مجلس سرور ويجوز فيه لاي كان ان يضحك ٠»

اما ابرهيم فظل واقفا يشد بذراع اخيه ليخرج من تلك الجلسة لئلا يحدث ما يكدره اكثر٠ ولكن رجلا متقدما في السن اعجبه منطق فريد فنهض باسما وتقدم الى ابرهيم بلطف سائلا اياه ان يعود الى مكانه لمحو اثر الخلاف خوفا على خاطر الصغير القادم من البلاد فقد شعر بنفسه ان فريدا انكسر خاطره فاضطر ابرهيم الى الجلوس وعاد الرجل المتقدم في السن فقال لفريد «يا فريد لا تزعل يا ابني لاباس عليك مسالة صغيرة٠لا تستحي فكل الحاضرين اخوان اي يا ابني اقعد وقل لنا الان كيف تفسر كلمة سمار لنضحك نحن عليك كما انت ضحكت علينا»

فضحك القوم سلفا على فريد ما عدا ابرهيم الذي كان السم يغلي في قلبه ولكنه لم يجسر ان يعترض ولما راى فريد ان الحاضرين سري عنهم تبسم وقال

«ان كلمة سمار جمع سمير والسمير هو الذي يسهر الليل فيكون معنى الشاعر ان الساهرين ناموا الا هو فقد حرمه

النوم الم يعذبه»

فضحك ذلك المتقدم في السن ضحكة كبيرة وقال «اي والله الان اخذنا بثارنا منك» وضحك لضحكته الحاضرون الا ابرهيم الذي نهض في الحال يريد الذهاب مع اخيه بداعي ان السهرة قد طالت

تلك السهرة لم ينم فريد مع اخيه ومنذ تلك السهرة لم يعد يضم الاخوين اجتماع وعندما يسال ابرهيم عن سلوك اخيه يهز راسه ويتنهد قائلا «ما احد اشترى البلوى لنفسه مثلي فقد كنت بلا هم فجئت باخي ليزيد سروري فكان انه حرمني الراحة ولكن اميركا واسعة فالله يسعده ويبعده»

عيد الفطرة

عبد الفطرة

حنا مرقص هاجر الى اميركا وهو دون العشرين من عمره وقد تعلم الانكليزية المكسرة عن طريق البيع بالكشة فالجزدان فعرض بضائعه في الهوتيلات.

كان في بادىء امره خجولا يرى كل شيء اكبر منه وكل انسان اعلم منه ولكنه بعد ان صار يستطيع الرواح والمجيء في شوارع المدينة ويمكنه التنقل من بلد الى اخر اصبح ذا انف واصل ذرى السموات فصار من اكبر الاغنياء بمئة ريال وفرها في بنك الحكومة وصار من اعلام الكرة الارضية بتعبيره باللغة الانكليزية المخلوطة كلمات عربية عصيت على انكليزيته ولكنه يخلطها ضاحكا لتجيء من فيه كانها مقولة منه للفكاهة وصار من اقدر الناس على الدخول في معترك البشر لانه يستطيع ان يضع رجلا في نيويرك واخرى بسانفرانسيسكو

اذا جلس في المطعم السوري تبقى فرتيكته نظيفة اذ يستعيض عنها باصابع يديه ويكبر اللقمة التي غالبا يلحشها باصبعه في فيه لتدخل غصبا عن اتساع فمه

اما اذا جلس في مطعم اميركاني فلا ياكل السمك الا بالفرتيكة وكثيرا ما يترك الدجاجة المحمرة في صحنها

مهرمشة منه هرمشة لتعذر استخراج لحمها بالفرتيكة فتبقى عينه فيها ومعدته تطلع وتنزل شوقا الى ابتلاعها ولايجسر ان يفتك بها لانه عالم جيدا انه في مطعم اميركي·

كان يحلق كل صباح ولكنه كان يلعن هذه البلاد التي تضطره الى ذلك متمنيا الرجوع الى قريته التي لايضطر فيها الى تكنيس شعر وجهه الا مرة كل اسبوعين

كان يداري لباسه وهندامه ويشتري لنفسه وردة يوم الاحد وكلما جلس على مقعد او كرسي يشقل بنطلونه محافظة على كيته عند الركبتين ولكنه ابدا يفضل القمباز لعدم الثقلة بلبسه وانما لم يجسر على ان يقول ذلك امام الغير

بعدما قضى السنتين الاوليين في هذه البلاد ابتدا يتدخل بين الاجانب ولم يقض الخمس سنوات حتى صار اميركي التبعة يصوت للمنتخبين الى الاحكام ويتحزب لبعضهم دون البعض الاخر ولكنه كان قبل ان يذهب الى عالم الاحلام في كل ليلة تبقى جفونه مفتوحة وفكره محلقا في سماء الاماني متمنيا العودة الى بلده لينام تحت الشجرة لحافه السماء وفرشته المرجة ووسادته الكرسي الصغير المصنوع من القش·

هذا حنا مرقص له وجهان وجه اميركي بالظاهر واخر بلدي بالفطرة ·وما زال في اميركا فالتطبع غالب عليه ولكنه يودويحن الى التخلص من نيره ليجعل فطرته السائدة·

في اميركا اه لو عاد حنا مرقص الى« كفربطه »قريته ليخلع عنه الرداء الافرنجي ويوفر كم مسبة دين ولعنة لدى ترتيبه الربطة في حال شدها ذهابا وايابا

حسن جاء الوقت الذي اصبحت فيه خطوات حنا مرقص مسددة نحو الوطن بعدما انفتحت الطريق بين العالم الجديد والعالم القديم بعدما كانت الحرب قد اوصدتها حينا طويلا وبعد الجهد الكلي حصل على باسبورت من الحكومة الاميركية ليعود الى حضن امه العجوز وليشارف بخبرته ومعرفته الكرم والارض التي ورثهما عن المرحوم ابيه

كان يقول لاصحابه انه لايفتكر بالعودة الى اميركا لانه ذو مال كثير وخبرة وافرة بالتجارة وبلاده مفتوحة جديدا فالمستقبل امامه فاتح باب النجاح الكثير

ووصل حنا مرقص الى البلاد فكتب الى صديق له يقول انه لايفتكر بالبقاء اكثر مما يفتكر بالرجوع فان سوريا لم سوريا لم تات على ذوقه وقد كان ظنه ان البلاد تغيرت ولكنها بالحقيقة لم تتغير فان الخياطين لا يعرفون التفصيل والخياطة على الازياء المستحدثة والبيوت خالية من الحمامات واذا اراد ان يحلق كل يوم يقضي بالاقل ساعتين لبينما يسخن الماء بالقدر واذا اراد التنزه في المتنزهات لايجد مقاعد تحمله وتقيه من الرطوبة وبالتالي لاح له ان ميدان

التجارة ضيق في الوطن لان الناس هناك يتكلمون بالغروش اما في امركا فيتكلمون بالريالات.

هذا حنا مرقص كان يرى نفسه مقيدا بسلاسل مدنية اميركا فلما صار في سوريا ورأى نفسه حرا من تلك القيود تمنى الرجوع الى اميركا لان اميركا الله يعمرها ،بلاد تسكن، وهي بلاد الناس كما يقولون عنها

وعاد حنا مرقص الى نيويورك «رافعا العشرة» عن الفكر يوما بالرجوع الى الوطن قائلا في نفسه ان الاحسن للانسان ان يجعل اميركا وطنه ويقف عند ذلك الحد.

وما كاد يقضي الشهر في اميركا حتى عاد تمني حنا مرقص الى الحرية النفسية التي يتمتع بها في بلاده ولكنه صار في هذه المرة يحمل نفسه على كره هذه الامنية لان ماله الذي جمعه بعرق جبينه في السنوات العديدة كاد يرسف في اخر جيبه ولم يعد يدري ماذا يحب اميركا وفيها الخياطون ذوو الاختراع وفيها المتنزهات ذات المقاعد والمناظر البديعة وفيها الحمامات والماء الحار للحلاقة كل يوم مما يضنك المرء ويجعله مقيدا بسلاسل قوية من العادات التي اصطلح عليها البشر ام يحب وطنه وليس فيه هذه القيود وهي مما تلزم البشر في معيشتهم!

وقبل ان ينهي الصراع بين هذين العاملين المتناقضين

عامل كره اميركا لقيودها وكره سوريا لعدم وجود مثل تلك القيود الاميركية تناول جريدة السائح فطالع فيهـا قصيدة مخائيل نعيمه «حبل التمني» واعاد قراءتها مرات ليتشبع من معانيها فغالب نفسه بهذا الشطر

«اتمنى لو كنت لا اتمنى»

فغلبها نوعا قائلا: مع السوق سوقي والسلام!

الامل والالم

الامل والالم

ابو حنا هاجر الى اميركا مع ام حنا بعد ان رزقهما الله حنا بسنتين املا ان يكنس كم سلة ذهب من اميركا ويا تي بها الى وطنه فيبني قصرا ويشتري حاكورة جاره ويعيش مع ام حنا واولاده بمدخوله الكثير دون هم ولا تعتير.

كان ابو حنا قبيل عقده النية على ان يهجر الاوطان يتامل في السعادة التي يحصل عليها اذا رجع من اميركا موفقا «منيما» مئات الريالات بل الوف الريالات فيمد نظره الى بعيد قائلا في نفسه اذا كان كل ما يقع تحت بصره يصير ملكه وهو جالس في قصره يدخن اركيلته لا تعب ولا شغل ياتيه فلاحوه بما يزيد على نفقاته كل سنة، فيا لها من حياة هنيئة!

وام ابو حنا اميركا بعد ان رهن داره وجاء بالام والطفل الى اميركا بعد عذاب كثير في بيروت ومرسيليا ونيويورك ايضا حيث لاقى الاهوال في الجزيرة بسبب مرض السيدة ولكن حظه خدمه قليلا لانه في نيويورك وجد من ضيعته صديقا قديما كان يتوسط له في ادارة المهاجرة فبعد اسبوعين من وجود ام حنا في المستشفى خرجت من المطهر

الى عالم الحركة والتجارة.

وظل ابو حنا ضيفا عزيزا على صديقه مدة اسبوع تعلم في اثنائه شيئا من الشغل وامسك سبيل التجارة من اوله اذ ابتاع له مضيفه كشة ملأها بالدبابيس والابر والمقصات وبعض قطع من مناشف وغيرها ودربه على كيفية حملها على كتفه وانزالها وعلمه بعد الجهد كيف يطرق الابواب وكيف ينزع برنيطته ويحيي وكيف يسال ان يقبل الناس على ان يشتروا منه ويحابروه. وكان ابو حنا لدى كل هذه الامور يبلع ريقه ويكبس على جرحه شاعرا انه كان في اماله القديمة في واد والحقيقة في واد فان الشوارع التي امل ان يكنس منها سلالا من الذهب كانت اما نظيفة من كل شيء واما مملوءة وحلا واوساخا. ولكنه لم يجسر على ان يتفوه معترضا على ما شاهده خلافا لما امل او بالاحرى استحيى ان يقول امام مضيفه شيئا مما احس به لدى وصوله من الاخفاق فبقي سره في قلبه واحتمل الكشة وتوابعها لاعالة ام حنا وطفله في ارض الغربة.

ولا حاجة الى اطالة الشرح من ان السنين العشر الاولى التي قضتها عائلة ابي حنا في اميركا كانت مزيجا من العناء الجم بالنجاح القليل الا انه في خلالها كبرت العائلة وصار لابي حنا اربعة اولاد غير حنا وكلهم لم يشعر بتربيتهم

البيتية فانه نظرا لشغله مع امهم بالبيع اضطر ان يكذب على ملاجئ الايتام قائلا في كل واحد يدخل اليه ولدا ليتعلم ويتربى مجانا انه يتيم بلا ام واحيانا كانت تذهب الام فتقسم امام عمدة الملجأ ان ابنها يتيم بلا اب. وهكذا رفع الولدان عنهما مشقة التربية معتنين بتجارتهما وقد اشتركا على الشغل سوية وصارا قادرين على ان يقوما باود نفسيهما مع كم ريال تزيد في كل اسبوع على نفقاتهما فتاخذها ام حنا وتكنزها في الكمر الذي جاءت به من سوريا لتخبئها الى يوم يسمح الله بالرجوع الى الوطن ولا تسل عن الاقتصاد الذي مارساه في بحر هذه المدة لان افكار الزوجين كانت محصورة بجمع المال للرجوع الى الوطن في الفرصة السانحة

الا ان الايام لم تتم صفوها لابي حنا ففي يوم من الايام عاد اولاده الخمسة دفعة واحدة لان الملاجئ علمت بان ابويهم حيان يرزقان وانهما من ذوي اليسار وبعد الجدال الطويل والعناء الكثير اضطر ابو حنا ان يرجع اولاده الى بيته ولكنه لم يشعر بحنو الوالدي نحوهم فانه ظل بمعرفته اللغة الانكليزية لا يزيد على ما تعلمه من مضيفه في نيويورك وابن بلده في الاسبوع الاول لوصوله الى اميركا اما اولاده فكانوا كانهم اميركان ابا عن جد لا يعرفون من العربية كلمة واحدة ولهذا كان يضطر ابو حنا الى استنجاد

شاب سوري ليقف بينه وبين اولاده ترجمانا ينقل منه اليهم ارادته الوالدية ومنهم اليه صعقاتهم على سوء طالعهم الذي رماهم في بيت قذر كبيت ابيهم وهم اعتادوا النظافة واللياقة في المدارس الاميركية.

اما ام حنا فكانت ازلق من زوجها باللغة الانكليزية ولهذا مال الاولاد اليها دون ابيهم بل كانوا يخجلون ان يدعوا له اولادا واكثر ما كان خجلهم عندما الاولاد في الشوارع يعرفون انهم سوريون وكانوا اذا راوا من ابيهم شيئا لا يرضيهم يشتمونه بكلمة «سوري» اما هو فظل ممسكا غيظه حتى عيل صبره واما الام فكانت تاخذ جانب الاولاد واحيانا تبكي من قهرها وتحنو عليهم وتلاطفهم وهم رويدا رويدا شعروا بميلهم الى هذه الامراة التي فيما بعد شعروا بميلهم اليها كام لهم اما ابوهم فما كانوا الا ليزدادوا نفورا عنه وابتعادا كانه غيرابيهم.

وساءت الحال في عائلة ابي حنا فاصبحت حزين متنا كفين الاب من جهة والام والاولاد من جهة ثانية فلدى كل وقعة كان الصياح يتعالى لان ابا حنا لا يعجبه الا الطعام العربي والاولاد يحنون الى «الستيك والهام والرستو الى ما شاكل» والام ميلها ميل زوجها ولكنها كانت تساير الاولاد وتعنف الاب داعية اياه «فلاحا» ولم يزل كذلك

حتى في اميركا بلاد التمدن والحضارة٠اما ابو حنا فكان يتساءل في نفسه ما عساه يا ترى يفعل بنفسه ليتخلص من جهنم البيت فكانت احيانا تشير عليه ان يترك عاداته ويتلقن من اولاده العادات الاميركية لانهم متعلمون متهذبون فكان يجيبها ويجيب نفسه هازا راسه —

«عندما كبر وشاب حطوه بالكتاب»

وازداد سوء الحال حتى اصبح ابو حنا مكروها من الاولاد والام بسبب الشجارت الى حد انهم ما كانوا ينامون ليلة بملء جفونهم والحقيقة ان الام المسكينة كانت اتعسهم فانها كانت بين ويلين عظيمين واختارت الوقوف بجانب فلذات كبدها تاركة زوجها المسكين يعاني امر ضروب المعيشة فلا هو يفهم الاولاد ولا الاولاد يفهمونه حتى اضطر اخيرا ان يهجر البيت دون ان يودع عائلته تخلصا مما كان فيه من الحالات٠

في احدى مدائن اميركا العظيمة شوهد ابو حنا لابسا طقما ابيض رافعا عصا كبيرة وفي راسها ضمة من القش الطويل واماما معجلة ذات دولابين يسوقها بيده اليسرى وكان الشاهد ابن بلده الذي احتضنه وعائلته في الاسبوع الاول لوصوله الى نيويورك وعندما رآه قال مترددا:

«هذا ابو حنا٠ والله هذا هو!٠٠

ـــ الست ابا حنا؟

ـــ نعم يا صاحب كيف الحال؟

ـــ ما لك وماذا تعمل ههنا واين ام حنا والاولاد؟

ـــ تعلم يا صديق اني جئت بام حنا وحنا الى هذه البلاد وقد صار عندي اربعة اولاد غير حنا في هذه السنين. وكنت قد خجلت ان اخبرك لدى وصولي الى اميركا اني لم ار فيها ما كنت اعلل نفسي به فقد كنت آمل ان اكنس كم سلة من الذهب من الشوارع ولكن....

ـــ ماذا صار لك ؟

ـــ جئنا لنكنس الذهب فضيعنا المراة والاولاد وصرنا نكنس الوسخ والاقذار...

مدرسة الغربة

مدرسة الغربة

«اهل بلادنا مساكين متاخرون بكل شيء ولولا الغربة لكانوا لا يفرقون عن اهل افريقيا — الغربة علمت اكثرهم وفتحت بصائرهم فصاروا يعرفون ما هي الدنيا»

هذه بعض عبارة طويلة قالها الياس شدراوي في حضرة جمهور من المواطنين في احدى قهوات السوريين وكان الحديث عن تذكارات عنت لبعضهم في الوطن ولما اراد واحد منهم ان يرد عليه قائلا انه في الماضي كانت حال السوريين في سوريا كما ذكر ولكن منذ عشرين سنة اي بعد ان هاجر الياس شدراوي من سوريا امتلاءت بالمدارس فصار الاهلون هناك يعرفون كل شيء وهم لذكائهم الفطري صاروا ابرع من الاوربيين والاميركان بكل شان

اما الياس الشدراوي فلم يقتنع بهذا الرد بل نشل النربيج من فمه فخال الحاضرون انه سل من فمه اسنانه وقال. «في بلادنا لا يزالون يعتقدون ان شوارع اميركا مرصوفة بالزجاج وان المرء يستطيع ان يحفر اينما كان فيجد الذهب بكثرة وكثيرا ما نسمع انهم يعتقدون بغرائب الامور في اميركا ونحن قد صار لنا عشرات السنين فيها لم نر اثرا لذلك»

اما الذي فتح باب الاعتراض على حديث اليـاس

الشدراوي فقد اقفله بنهوضه ومغادرته الجماعة بعد ان قال «هذا كله مضى عهده من زمان والان حانت ساعة الصلاة لقداس الاحد نهاركم سعيد جميعا»

ذهب المعترض تاركا في القوم حديثا عن سوريا والسوريين لا يلتئم وكلما اراد احدهم جمعه في نقطة يظهر غيره فيشعبه الى جهات عديدة حتى ضاعت الطاسة بينهم وبعد ساعتين تماما اي قرب الظهر كان الحديث قد انتقل منهم من معارف السوريين بالمقابلة بينها وبين معارف المهاجرين الى مصر والمصريين والحكومة الانكليزية وحادثة اعرابي وشوءون عديدة والحديث كما يقولون شجون

لا ازال اذكر ذلك الاجتماع الوطني وقد مضى عليه اكثر من عشر سنوات في مدينة بعيدة عن نيويورك وقد اوقعتني رحلاتي في تلك القهوة صبيحة احد من الاحاد فجلست الى طاولة امتص القهوة واسمع من بعيد حديث القوم لاقتل الوقت الفارغ ولما لم اكن اعرف احدا منهم جلست غير مشترك بالحديث اتسلى بما اسمع الا ان تفرع الطرق التي سلكوها في احاديثهم قادعيني الى النعاس فصرت اكبو دقيقة ولما يطرق راسي بالحائط اصحو ثم يعود بي حديثهم الى طرقه ثانية وكثيرا ما هممت بالرحيل ولكني لم اجد في قوة كافية على النهوض وبالتالي كنت غريبا في

تلك المدينة وليس لي من مكان اذهب اليه الا تلك القهوة والنزل الذي نزلت فيه ولهذا وقعت ارادتي تحت كابوس النعاس فلبثت كمن في حلم مزعج يشاهد ادوارا غريبة فيقول في نفسه قد اكون في حلم فيجهد قريحته في معرفة ما اذا كان في حلم ام في يقظة

وفيما انا بمثل ما ذكرت من الحالات اذا بيد هزت كتفي فانتبهت مذعورا واذا بصديق تعرفت عليه من سفرة ماضية فقال لي «اتنام في الصباح. اصح يا فلان واخلط نفسك بين الاخوان فتتسلى وتقصي عنك النعاس»

قال هذا وتقدم نحوي فوضع فمه على اذني وقال لي «هنا رجل غريب في اطواره يدعي معرفة كل شيء وهو يجهل القراءة والكتابة وما احاديثه وندخله في كل موضوع الا فكاهة لمن يسمع فانتبه قليلا فاني ساثير ثائر اخلاقه واجعله يدخل موضوعا غريبا موءكدا انك ستنشق من الضحك»

وصاح صديقي الذي استانست به كثيرا بالخادم طالبا فنجاني قهوة لي وله وكنت فعلا قد انتبهت وطار من عيني كل اثر للنعاس اما صديقي فدخل في حديث القوم قائلا «باي شيء تتحدثون»؟ فاجابه الياس شدراوي «كان الحديث عندما دخلت عن الحكومة الانكليزية في مصر و«داعيك» كنت احكي لهم عما اختبرته بنفسي في ذلك

القطر بعد حادثة اعرابي فان الانكليز استعملوا الشدةالهائلة فيه حتى استطاعوا ان يجعلوه جنة عدن»

ومن الغرائب ان هذا الرجل كان يحكي بلغة سوريا عندما ابتدا قبل ان نعست لان الكلام كان عن سورياواما الان فلماصار الكلام عن مصر صار يتكلم بلغة المصريين ولهجتهم ولهذا انصت الى حديثه ايما انصات لاعرف كيف ينتهي وباية اللغات زد على ذلك ما اخبرني عنه صديقي من انه ايةمن ايات الدهر بالتحشر في كل شان وموضوع

اما خطابه فكان طويلا جداوقدلذ لي تعرجات حديثه فطورا كان يلم بسياسة مصر فينتهي بالفراعنة القدماء وطورايتجه نحو الاحتلال الانكليزي فيذيله بحادثة مكتبة الاسكندرية على عهد عمر بن الخطاب وكل ذلك بلغة المصريين ولهجتهم كانه خلق في مصر وجاء منها في ذلـك اليوم ولا اطيل على القارئ فاذكر كل ما سمعت مما كان يضحك كثيرا بل اقتصرعلى اخرحكاية اوردها المذكورقال

«في مصر يدفع كل محكوم عليه بالشنق جنيها مصريا ثمن الحبل ولا قوة تحت الشمس تخلصه من هذه الضريبة»

ضريبة ما انزل الله بها من سلطان ولكن الياس شدراوي يحكي للقوم اختباراته في تلك البلاد وانا ككل من كان حاضرا تنسمت هواء مصر وانا في الباخرة عندما رست

في مياه الاسكندرية اثناء قدومي الى هذه البلاد ولهذا سكت متعجبا الا ان احد القوم لم تهضم معدته هذه القصة فسال المتكلم بملء العجب وقال «ولكن اذا لم يكن مع المحكوم عليه ثمن الحبل فماذا يصنعون به؟» اما الياس شدراوي فاجابه في الحال بلغة اهل مصر «لا يشنقوهوش»

ولا تسل ايها القارىء كيف انتهت تلك الجلسة فان الضحك كاد يحدث شللا في احناك كل سامع ومن الجملة انا وصديقي ولما افقت وافاقوا وضعت يدي على راسي كمن كان في عالم الغيبوبة وقلت لصديقي ان ياذن لي بالانصراف الى النزل فرافقني اليه وعلى الطريق اخبرته ان اول ما سمعت الياس شدراوي في اول التئام الجلسة كان قوله عن جهل السوريين الفاضح بما يعتقدون وجوده في اميركا وانه كان يبرهن لسامعيه ان الغربة هي التي انارت بصائر البعض منهم وكيف انتهى في ذكر حكايته الاخيرة مدعيا انها من اختباراته الشخصية

قلت هذا وودعت الصديق صاعدا سلم النزل اما هو فاجابني «نشكر الله ان حكايته كانت من اختباره الشخصي فلو انها بالسمع كما يسمع السوريون في سوريا عن امجاد اميركا ويبالغون فيها لكان المحكوم عليه بالاعدام في مصر يشنق الخديوي مكانه اذا ابى دفع ثمن الحبل»

في الدرجة الثانية

في الدرجة الثانية

كثيرون من الناس لا يعرفون لماذا عيسى الباشق لم ينجح في هذه البلاد مع انه هاجر سوريا وهو في التاسعة عشرة من عمره شاب قوي الارادة جميل الطلعة ذكي الخاطر متوقد الذهن يحسن ثلاث لغات قراءة وكتابة وقد كان الاول من بني جنسه الذين وصلوا الى اميركا بالدرجة الثالثة من البواخر اما هو فقد ركب الدرجة الثانية ولبس البرنيطة منذ ودع اهله في بيروت الى الباخرة

والحق ان نيويورك شاهدت بعيسى الباشق اول شاب سوري عليه مسحة التمدن الظاهري وفيه كنه الادب الداخلي. ولكنه يا للاسف هو اليوم ابن خمسين سنة ولا يزال في الحالة التي قدم بها من بلاده منذ ثلاثين سنة ونيف

يعزو الناس عدم نجاح المذكور الى امور كثيرة ولكنها عند العارفين ليست بالاسباب الحقيقية التي دعت الى فشله

سله اليوم يجبك انه لم يفشل لا بل بالعكس قد نجح نجاحا باهرا ولكنه لم ياكل ثمار نجاحه اذ سرقت منه تلك الاثمار ايدي طماعة

يقول انه كان سببا لنجاح فلان الفلاني وفليتان الفليتاني وغيره. اولئك اليوم من كبار التجار اما هو فمن الناس

الزاهدين بالدنيا والاخرة لا يهمه من امر الناس شيء كانه من الناس بغير روح وكانه ناس انه من الناس بطرق معاملاته

وحقيقة الحال انه في اليوم الذي وصل به عيسى الى نيويورك شمر عن ساعد الجد وطفق يقرن قوة ارادته الى ذكائه واجتهاده يعمل في النهار وبعض الليل ليحصل ما امله من النجاح في بلاد النجاح ولكنه كان يخفق في حين ان اعماله تزهر وتثمر فتتناول اثمارها ايدي الغير ويبقى المسكين على الحصيرة لا طويلة ولا قصيرة

بعد وصوله بايام جاءه دعيبس ابن الاسمر من بلده وعرض عليه شانا اذا سارا فيه يقتادان به الثروة الكبيرة في المستقبل غير البعيد. دعيبس رجل قضى بضع سنوات ببيع المسابح والصور المقدسة في نيويورك وماحولها وقد جمع بصنعته مبلغا كبيرا من المال بالربح والتقتير. هذا عرض على عيسى ان يفتحا محلا تجاريا في نيويورك يضع دعيبس راس المال وعيسى يبذل خبرته وفي اخر العام تشطر الارباح بينهما وهي فكرة حسنة دخلت لساعتها الى عقل عيسى فابرما الشركة وما هي الا ايام قلائل حتى باشرا العمل تحت اسم د. اسمر وشركاه

حاول عيسى ان يدحش اسمه في اسم الشركة ولكنه لم يستطع لعناد شريكه وخاف ان تنفرط الفكرة فرضي قانعا

بالارباح في المستقبل عن ان يشهر اسمه وعبثا جرب ان يقنع شريكه ان العمل والخبرة مثل راس المال وان الربح لا ياتي به راس المال وحده اذا ما قرن بالعمل والخبرة٠ ولكن عيسى اخيرا قال «اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون»

تاسس محل د٠ اسمر وشركاه على اساس مكين وقد بذل مديره واحد اعضائه عيسى الباشق كل ما اعطاه الله من المواهب العقلية والاجتهاد النفسي لينجح الشركة ويجعلها من اكبر المحال التجارية في القريب العاجل اما شريكه فكان يامل ان يبلع نيويورك دفعة واحدة دون ان يصرف في سبيل بلعته ربا لا واحدا٠ وهذا اول موضوع للخلاف بين الشريكين لان عيسى كان يفتكر ان يوءسس المحل في السنة الاولى على دعائم الثقة والاعلان ولهذا لم يكن ليبخل في امر من الامور يقتضي فيه البذل اما شريكه فكان يقف عثرة في سبيله غير مقتنع ببرهان عيسى لان البذل التجاري في اعتقاده ليس الا تبذيرا وان الربح في الاقتصاد فكل سنت توفره تربحه كما يقول المثل الاميركي

وهكذا قضى دعيبس معظم السنة الاولى مجتهدا عاملا باذلا فصاراه مرتقا ما كان يفتقه شريكه بشحه وبخله وكثيرا ما كان يبذل من جيبه الخاص على امور تخص المحل لئلا يثير تاثر شريكه حتى مضت السنة الاولى فكان مجموع

ما صرفه موازيا حصته من الارباح اما ارباح دعيبس فكانت املاء من كوز الارملة عذراء طاهرة لم تمسها يد وقد ذهل شريكه عيسى ايما ذهول لهذا الامر ولما ساله من اين كان يصرف على نفسه اجابه انه كان «يمضيها هنا وهناك»

في راس السنة الجديدة جاء دعيبس الى مكتب عيسى وقال انه يفتكر بحل الشركة فواحد منهما يشتري حصة الثاني

وما كان عيسى يعلم السبب الداعي شريكه الى حل الشركة بالرغم عن نجاحها في بدء تاسيسها ونجاح شريكه بالربح الوافر الذي ضمه الى راس ماله الخاص مع انه هو المسكين نفسه اشتغل وشقي وبذل كل ما كان بوسعه على امل ان تزداد الارباح في السنوات المقبلة اضعافا فيكون له راس مال منخور

ومن المضحكات ان عيسى اعيى عن اقناع شريكه ان تظل الشركة وان انحلالها بعد سنة يقلل الثقة بها وان بقاءها اربح للاثنين وان المامول ان تزداد ارباحهما اضعافا في السنين القادمة لان ما مضى لا يدعى زمن تجارة وربح بل زمن تاسيس ومباشرة وعندما قال له اذا كان لا بد من القسمة فهو يشتري المحل اجابه دعيبس بقوله ــ مليح اعطني ثمن حصتي!

ومن اين لعيسى ثمن حصة شريكه ? ولكن عيسى نفسه

فهم معنى القسمة التي يريدها شريكه ولهذا ضحك ضحكة صفراوية ممزوجة بالم وياس وقال له — اما انا فاذا بعتك حصتي فماذا تدفع لي عنها ؟

فاجابه — ادفع لك بقدر ما لك في الدفتر وحبة مسك

فقال عيسى — هذا في الشرع عدل فاذا اعطني مالي في الدفتر كفاية تبقى حبة المسك فهذه من فضلك وكرم سجاياك وانا ممتن لك من هذا السخاء. وتناول عيسى الدفتر فضرب على اسمه واخذ قبعته وسار نحو الباب وقبل ان يخرج تطلع الى وجه شريكه زاورا وقال له — خاطرك يا دعيبس فقد انتهى ما بيننا الان واما حبة المسك فلا حاجة لي بها فخلها في شواربك

في اليوم التالي كان محل د. اسمر وشركاه فاتحا بابه كالعادة وعوضا عن مديره واحد اعضائه عيسى الباشق كان جالسا فتى يشتغل في الدفاتر باجرة ثمانية ريالات في الاسبوع

ولماذا يشرك دعيبس غيره على ربح ماله في حين انه يستطيع ان يستاجر فتى باجرة زهيدة يقضي محل الشريك

اما عيسى فاتفق مع محل سوري اخر يمثله بالمساطر في الداخلية فاظهر بادىء ذي بدء قوة غريبة في كسب الزبائن لمحله الجديد حتى صارت مداخيل المحل خمسة

اضعاف الماضي ولكنه في اخر السنة عاد الى نيويورك للحساب فرحا بنجاحه واملا بزيادة التقدم في السنوات الاتية لانه اعتبر تلك السنة زمنا للتاسيس فكان يبني اماله للغد وعندما جلس «السلزمان» مع «الباظ» للحساب راى منه كل تساهل وغيرة وفي الحال رصد صاحب المحل حساب عيسى بحوالة مالية قدرها ثلاث مئة ريال مع قوله له انه يعز عليه كثيرا ان يصرفه ولكنه مدفوع لذلك بعامل الخوف من المستقبل ولهذا يرى ان يخفض المصاريف دفعا للمحاذير

وعبثا حاول عيسى اقناع «باظه» بان خوفه لامحل له وان المستقبل يبسم لهما عن نجاح اكيد ولما اعيى تناول برنيطته واستلم الباب يبحث له عن عمل في محل اخر

واتفق عيسى اتفاقات عديدة مثل اتفاقه الانف مع بيوتات سورية عديدة كان في نهاية كل سنة يزيد في ارباح المحل وهو يخرج قانعا بالسلامة حتى مل العمل ويئس من النجاح فلاذ الى المسكرات والقمار وهو لا يزال يعمل يوما فيكسل شهرا الى هذا الحين والناس يتعجبون لحاله ويسندون فشله الى امور هو بعيد عنها بعد الارض عن السماء

صادفته مرة في احدى القهاوي فملت اليه احادثه في امور هذه النزالة ففتح الي جعبة اسراره وقال — يظنني الناس غير ناجح ولعمري اني اسست في السنة الاولى محل د. اسمر

وشركاه فاكل ثمرة اتعابي فتى استاجره دعيبس بثمانية ريالات في الاسبوع اذ لم يمض عليه الا اشهر قليلة حتى سرق المحل وزور على صاحبه حوالات باكثر من نصف راس المال فاضطر المحل الى الافلاس واما الفتى فقد صرف المال على البنات. وبعدما قضى سنتين في الحبس صادفته في الشارع فاقر لي انه سرق مضطر الان المعاش لم يكن وافيا

وقال لي ايضا ان المحل الثاني الذي كسب له زبائن عديدين اضطر الى الافلاس بعد سنتين لان زوبعة مالية هبت في اسواق اميركا فاثرت عليه لفرار اكثر الزبائن بالديون التي عليهم

وعد امامي محالا عديدة قال انه وضع اساسها التجاري على صخر فكان لا يكاد ينهي الاساس حتى يرغم على الترك وما كان يغضبه بالاكثر انهم لا يبنون على تلك الاسس القويمة الابنايات من لبن بدل الحجر

مسكين عيسى الباشق! الناس تظن انه سكير ومقامر وكسلان ويقولون عنه «القامة مصقولة والجيبة ما فيها فولة» والحقيقة انه رجل طبخ فاكل غيره وزرع فحصد سواه وهو يقول ان اميركا ليست للذين يهاجرون اليها بالدرجة الثانية او الاولى ولا الذين يعرفون القراءة والكتابة واللغات انها لغيرهم للتجار بالصدفة والقدر!

خبزك بعرق جبينك

خبزك بعرق جبينك

توماس كاربنتر امي يجهل القراءة والكتابة باية لغة من لغات العالم ولكنه بالرغم من ذلك يشتري جريدة من جرائد البلاد صباحا لدى ذهابه الى عمله ويطويها طيات فيدحشها في جيبه ويسير الى عمله وتبقى معه حتى يذهب الى سريره للنوم اذ ذاك يرمي بها الى السلة او من النافذة الى الشارع

وتوماس كاربنترليس بالانكليزي الاصل ولا بالاميركي بل هو سوري ابن سوريين من سلالة السوريين ولكنه هكذا دعا نفسه بعد سنة من وجوده في اميركا اما اسمه الاصلي فكان طنوس نجار

هاجر طنوس وهو في العشرين من عمره وقد وضعته الاقدار في قرية من قرى ولاية فرمونت وهو لا يزال هناك حتى هذه الساعة يشتغل بالبيع بالجزدان وقد كان في السنوات الاولى يسترزق من عمله في احد المصانع الحديدية

في السنوات الاولى المذكورة اذ كان حضرته لا يزال طنوسا ابن النجار كان لا يريد ان يعرف من اميركا الا سحب المصاري فكلما توفر لديه كم ريال يذهب الى سوري اخبر منه في ذلك البلد فيساعده على ارسال مبلغ من الريالات

الى ابويه وظل هذا دابه يشتغل فيساعد ذويه حتى مل العمل في المعمل اذ كان يرى بعض باعة الجزدان تسوقهم الاسفار الى ولاية فرمونت فيحسدهم على معاشهم وحياتهم فكان يرى نفسه اجيرا وسخ الثياب والهيأة امام غناهم وحسن هندامهم فلعبت براسه سورات الطموح الى مصافهم وظل يعالج هذا الهم ويغالبه حتى فاز بما كان يتمناه فترك المعمل ومشاقه غانما نحو مئتي ريال ليبدا بالبيع ويستلم معارج التقدم

اول طموح طنوس نجار الى الارتقاء كان بشيئين. اولا بتغيير اسمه وثانيا بمشترى طقم جديد من القدم الى الرقبة

ومن ذلك اليوم لفظ الطموح الخواجه طنوس نجار المستر ثوماس كاربنتر وهو لا يزال كذلك الى يومنا الحاضر

وكتب مستر كاربنتر الى اهله انه تقدم في حياته وان الفابركة ليس منها مطمع فالتجارة اربح له واحسن لمستقبله وانه ابتدا يتدرج بادوارها فهو قد ابتدا يبيع بالجزدان وان شاء الله بعد مدة وجيزة يصير صاحب مخزن

وفي حاشية على زاوية الرسالة املى حضرته على الذي كان يكتب له رسالته ان اسمه المعروف من الان فصاعدا صار ثوماس كاربنتر

لما وصل كتاب هذا المهاجر الى اهله فرحوا لنجاحه ايما

فرح ولكنهم كانوا يبالغون بالاخبار عنه حتى ان امه كانت تحمل تغيير اسمه من عربي الى انكليزي الى ان نجلها صار اميركيا بكل معاني الكلمة. ولكنهم ما لبثوا ان اغتموا لنجاحه لان ما اعتادوه منه بارسال دراهم اليهم كل وهلة قد انقطع عنهم فكانوا يظنون ان ذلك طبيعي لتاسيسه تجارته فكانت رسائل ابيه اليه تحمل شيئا من الشكوى للحالة التي يعانيها بسبب قلة ذات اليد فكان يكثر من الادعية بتوفيقه بان يمسك التراب فينقلب الى ذهب ثم يسال الله ان يدب الحنو في قلبه لئلا ينسى ابويه الذين ما لهما غيره من بعد الله تعالى

كانت المهنة الجديدة التي ابتدا بها المستر كاربنتر شاقة عليه بادىء ذي بدء فان الايام الاولى لم تدر عليه ربحا البتة ولهذا كانت العوامل العديدة تتنازعه ايعود الى الفابركة التي ربحه مسوكر فيها ام يظل يمرن نفسه على اساليب البيع بالرغم من انه لم «يسنس» في الايام الاولى؟

الا انه لا بد للمسافر من الوصول الى محطة. فبيعة اولى جاءته بربح كم ريال وهذا ما شجعه على المثابرة فتلتها ثانية وثالثة وصار له زبائن يعرفهم ويعرفونه وصار يعرف الاصناف الاكثر رواجا من غيرها وطلب السعر الغالي ليحصل على الربح القليل الى ما هنالك

ولا حاجة الى القول ان ارباح المستر كاربنتر كانت اكثر من الاجرة التي كان يتناولها في الفابركة الا انه كان يشعر ان مصاري الفابركة فيها بركة اكثر وكان يحس ان ارباح الجزدان تطير من حيث لا يدري لان البيع يحتاج الى لياقة وحسن هندام وهدايا للصانعات وغير ذلك كثير ومع هذا ظل بمهنته لانه اعتادها واحبها ولم يعد مجبورا على سماع تنبيه الساعة الدقاقة عند الساعة الخامسة صباحا بل صار ينهض من النوم ضحى كل يوم واذا كان الطقس رديئا كان يبقى في غرفته متكاسلا فتارة كان يقوم بضائعه ويعد ارباحه وتارة يخاطب بالتلفون بعض زبائنه فيبرم معهم مواعيد لعرض بضائعه عليهم

في السنوات الاولى — بارك الله بها — كانت رسائل طنوس نجار تذهب بكل بوسطة الى اهله اما بعده فصار ثوماس كاربنتر يجيب على عشر رسائل من ابيه دفعة واحدة معتذرا انه يجهل الكتابة وليس من يكتب له رسالته الا كل مدةوفي رسائله الاولى كانت الحوالات المالية بالكميات الصغيرة متتابعة اما بعدها فصارت الحوالات قليلة جدا ونادرة

في سنوات النكبة التي حلت على سوريا كان المستر كاربنتر يعلل نفسه بالامال فكان يظن ان لا مهرب لعائلة ابيه من الفناء جوعا وقد توجع اولا لحالتهم وتفطرت كبده

الا ان الايام محت منه هذه العاطفة ورسخ بعقله ان عائلته لا امل لها بالخلاص ولهذا كان يرقب نهاية الحرب وانفتاح الطريق لياخذ او لباخرة الى لبنان فيلملم رزقات ابيه ويضع الدار والارض والكرم كلها باسمه وهذه لولا المجاعة كان يجب ان تذهب مقسمة الى ستة لانه واحد من ستة من اولاد ابيه

بقي المستر كاربنتر على امله اربع سنوات كاملةوابوه وامه واخوته الصغار كلهم في عداد الاموات بعقله. فكان اذا ذكر احدهم يقول عنه المرحوم فلان كانه تناول نعيهم تماما ولهذا كان يقول في نفسه الحي افضل من الميت وهو يعني بالحي نفسه وبالميت كل واحد من عائلته

والسبب في انه لا يزال مقيما في ولاية فرمونت الى اليوم مع ان كثيرين من المهاجرين يعدون بالالوف ركبوا البحر الى سوريا وهو الذي كان يعلل نفسه بانتهاء الحرب لياخذ اول باخرة تنقل ركابا من نيويورك الى سوريا عن طريق فرنسا او ايطاليا او انكلترا هو انه تناول بعد شهر من الهدنة كتابا من المرحومين في عقله ابيه وامه واخوته الصغار كلهم بعثوا احياء من النكبة الدابرة وفيه يخبره ابوه بانهم باعوا كل شيء حتى اثاث البيت ليحافظوا على حياتهم ولو تاخر الحلفاء اسبوعا واحدا لذهبوا جميعا ضحايا الجوع ثم ان اباه

يشكر الله ان ابنه في اميركا ولهذا تمكن من ان يستدين من الجيران مبلغ مئة ليرة بعدما باع كل شيء على امل ان ابنه طنوس في اميركا يفيها لدى فتح الطريق

لا يزال الى اليوم يشتغل باجتهاد ليساعد اهله كما كان يوم كان طنوسا يعمل في الفابركة واذا ذكر امامه شيء عن النكبة في سوريا يكذبها حالا ويلعن الجرائد التي نقلت انباء المجاعة الى المهاجرين مع انها اختلاق محض حتى انه يوم اجتمع بصديق له في بلد اخر فعلم منه انه مات من اهله عشرون شخصا وان الضيعة فقدت تسعين بالمئة من سكانها حاول المستر كاربنتر اقناع صديقه ان كل ما بلغه كذب واختلاق من الجرائد بشهادة ان اهله هو نفسه لا يزالون احياء

ولما اجتمع بصديق له اخر تناول حديثهما اخبار البلاد فقال انه مبسوط جدا ان اهله ظلوا احياء وانه مستاء جدا من صديقه الاول لانه ذاهب الى لبنان ليرث اهله كانه طلبها في السماء فوجدها على الارض ان يموت اهله ليرثهم وليس من يقاسمه التركة من اخوانه وانهى حديثه بقوله ان الارث لا خير فيه وان على المرء ان يتمتع بما تجني يداه فخيرما يا كله الانسان ما كان معجونا بعرق جبينه

فهرس